الرحلات القوقازية

من بلاد القرتشاي
إلى بلاد القبرداي

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤلفات مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) في إفريقية الخضراء مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤)جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) رحلة إلى سيلان - نشرته جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(٦) صلة الحديث عن إفريقيا مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين – نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) مشاهدات في بلاد العنصريين: رحلة إلى جنوب أفريقية وحديث في شؤون المسلمين – نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - نشره نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية – طبع في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين – طبع في

الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) رحلات في أمريكا الوسطى - طبع في الرياض في المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - طبع في الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) على ضفاف الأمازون رحلة في المنطقة الاستوائية والبرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) على قمم جبال الأنديز - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) في غرب البرازيل - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) في بلاد المسلمين المنسيين بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض

عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان - طبع في بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) في جنوب الصين - طبع رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣)كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر - طبع في بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع في بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها

في مكة المكرمة عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية – طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام – طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا – نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية – نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان – نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور – مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك – مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) في شرق البرازيل، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٥٨) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات لأمريكا الوسطى) – المطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ.

(٥٩) شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية)، طبعته مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

(٦٠) من بلاد القرشاي إلى بلاد القبرداي، وهو هذا.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٦١) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٦٢) أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٦٣) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٦٤) كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون — في سلسلة الكتاب السعودي.

(٦٥) نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٦٦) مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون



في سلسلة الكتاب السعودي.

(٦٧) سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٦٨) صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٦٩) العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٧٠) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٧١) المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٧٢) الأمثال العامية في نجد (مجلد واحد) طبع في دار إحياء الكتب العربية في القاهرة عام ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

كتب مخطوطة في الرحلات للمؤلف

١-وراء المشرقين: رحلة حول العالم وحديث في شؤون المسلمين.

٢-رحلات في البيت: رحلات داخل المملكة العربية السعودية.

٣-جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط.

٤-ذكريات المؤتمرات (الخارجية).

٥-جولة في جزائر المحيط الأطلسي.

٦-مؤتمرات إسلامية حضرتها.

٧-رحلة المسافات الطويلة.

٨-حول العالم في خط متعرج.

٩-وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية.

الرحلات الإفريقية

١٠-في ربوع السودان الغربي.

١١-الإشراف على أطراف من المغرب العربي.

١٢-العودة إلى غرب إفريقية.

١٣-بقية البقية في حديث إفريقية.

١٤-إلى أقصى الجنوب الإفريقي.

١٥-المستفاد من السفر إلى تشاد.

١٦-من إفريقيا الاستوائية إلى ساوتومي.

رحلات في القارة الأوربية

١٧-بلاد البلطيق.

١٨-البرتغال وبلجيكا وهولندا.

١٩-زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفييتي: بلاد الروس والبشقردز.

٢٠-خلف الستار العقيدي.

٢١-إلى جنوب الشمال: بلاد



الرحلات الهندية

الرحلات الآسيوية

الرحلات الأمريكية الجنوبية

الرحلات الصينية

الرحلات الكاريبية

رحلات بلقانية

أستراليا وجنوب المحيط الهادئ



٧٢-نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض، أو رحلة إلى أبعد مكان.

٧٣-في غرب أستراليا.

٧٤-في شمال أستراليا.

٧٥-في جنوب أستراليا.

٧٦-في شرق أستراليا.

٧٧-في ربوع بابوا نيوقني.

٧٨-إطلالة على المحيط الهادئ من أستراليا إلى جزيرة قوام.

الرحلات الأمريكية الوسطى

٧٩-بلاد المكسيك وقواتيمالا.

٨٠-بيليز والسلفادور.

جنوب روسيا

٨١-جمهورية القبائل الروسية.

٨٢-إقليم أورنبورغ.

٨٣-إقليم سمارا وإستراخان.

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد ، فإن هذا هو الكتاب الثاني من كتب ثلاثة ألفتها في سفرة ذهبت فيها من مكة المكرمة إلى جبال قبق التي أسماها أسلافنا العرب الأبطال بذلك، وهي تسمية نسيناها نحن المتأخرين، فأخذنا تسمية لها أخرى من قوم آخرين أسموها بجبال القوقاز، أو القفقاس، أو القفقاز حسبما نقل ذلك من نقلها من بني قومنا ، ولكننا كتبناها كما هي معروفة الآن عندهم: القوقاز، مع ألمنا لذلك، وإصرارنا على أن نسميها بما سماها بها أسلافنا من جبال قبق، أو جبال (قبج) إلا أن المثل يقول: « خطأ مشهور خير من صواب مهجور ».

ونحن لا نقول بذلك، وإن كنا نذكره حيث لا مناص منه.

والكتاب الأول من الكتب الثلاثة عنوانه: « جمهورية الإديغي: بلاد الشركس ». وكتبت في هذه السفرة قبله كتاباً آخر عن قطر مسلم آخر هو (القرم) التي كانت محطتنا الأولى في المنطقة بعد إسطنبول .

وقد عنونت هذا الكتاب بعنوان يدل على أنه لبلدين اثنين هو: «من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي »؛ إن بلاد القرتشاي هي جمهورية « قرتشاي شركس » التي يؤلف القرتشاي الأكثرية المسلمة من أهلها ، وهم أقوام مسلمون يتكلمون لغة متفرعة من التركية القديمة ، ولهم الأكثرية فيها بالنسبة إلى الشركس الذين يؤلفون الأقلية المسلمة فيها. كما أن الطرفين لا يؤلفان إلا نحو النصف

من سكانها. أما النصف الآخر فإنه مؤلف من الروس وأضرابهم من السلافيين الذين هم الأوكرانيون والروس البيض ومن لف لفهم من غير المسلمين من الذين هاجروا أو هجروا إليها تحت نفوذ المستعمرين، أو الشيوعيين .

أما بلاد القبرداي فإن المقصود بها (جمهورية القبرداي بلغار)، والقبرداي هم من الشركس وإن اختلف التلفظ باسمهم، مثلهم في ذلك مثل الإديغي، فأصل الجميع واحد، واللغة الشركسية التي تجمعهم هي لغة واحدة. وإن اختلفت لهجاتها.

وللقبرداي الأكثرية من هذه الجمهورية على البلغار الذين يوحي اسمهم أنهم بقايا شعب عظيم له تاريخ مجلجل في هذه المنطقة، وفي منطقة نهر (إيتل) المعروف الآن بنهر (الفولجا)، ويتكلمون لغة متفرعة من التركية القديمة المسماة بالجغتاوية. إلا أن بعض المؤرخين يرى غير ذلك في أصلهم كما سيأتي.

ومزية المسلمين في هذه الجمهورية من قبرداي وهم الشركس والبلغار أن لهم الأكثرية فيها على بقية السكان من غير المسلمين، ذلك بأن المسلمين يؤلفون فيها زهاء ٧٠٪، وهي الجمهورية الوحيدة من بين الجمهوريات القوقازية التي زرناها حتى الآن يؤلف المسلمون فيها أغلبية سكانها مع كونها كلها كانت بلاداً مسلمة خالصة للمسلمين قبل الغزو الروسي للمنطقة. ثم احتلالها خلال القرن الثامن عشر.

وأما الكتاب الثالث فإنه سيكون كتاب: «العودة إلى داغستان». وقد أسميته بهذا الاسم لأنني سبق أن زرت (داغستان) إبان العهد السوفييتي الشيوعي، وكتبت عنها كتاباً بعنوان: « بلاد

الداغستان » طبع قبل سنين، واستقبله القراء استقبالاً كريماً، والداغستان - أيضاً - يؤلف المسلمون الأكثرية من سكانها، وكلها داخل جمهورية روسيا الاتحادية .

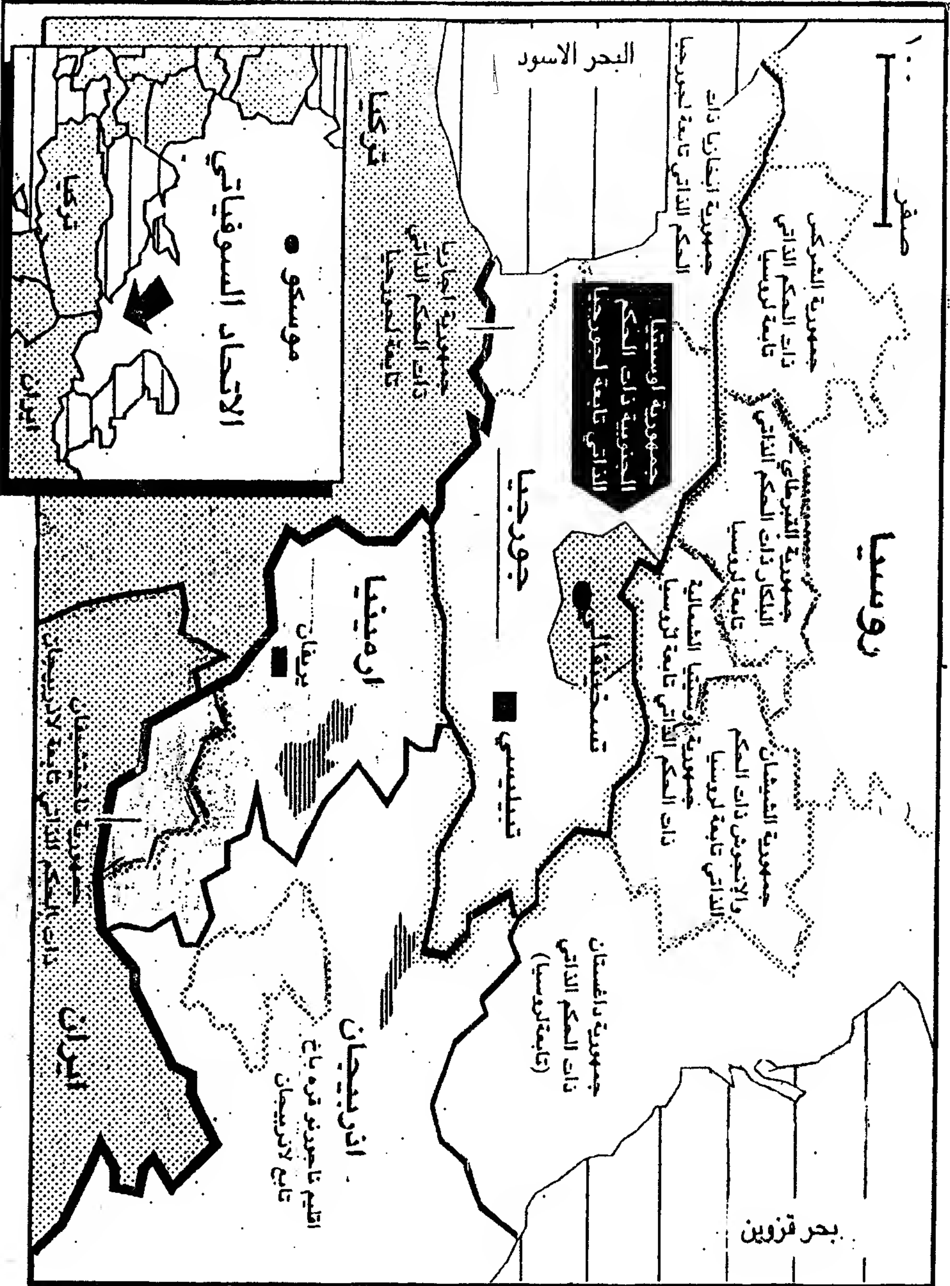
وقد سرت في كتابة هذا الكتاب على الطريقة التي سرت عليها في بقية كتبي، وهي تسجيل المشاهدات والتعليق عليها بما يستوحى من ذلك، أو بما نسمعه متعلقاً به.

وانصب اهتمامي بالدرجة الأولى على وصف زيارتنا للمؤسسات الإسلامية من المساجد والمدارس، والاتصال بالشخصيات المسلمة، إلى جانب ذكر الأشياء المهمة، أو التي تستحق الذكر من الأمور العامة التي يهتم السياح بها في العادة. والله الموفق.

المؤلف

مكة المكرمة

محمد بن ناصر العبودي



منطقة القوقاز

جمهورية قراتشاي - شركس:

تقع في السفوح الشمالية لسلسلة جبال القوقاز، وهي بلاد جبلية تغطي الغابات أكثر أجزائها، كما يكتظ السكان في شمالها، ويزاولون زراعة القمح، والشعير، وبنجر السكر، وعباد الشمس. ويستخرج من أرضها الزنك، والرصاص. وتقوم الصناعة على التعدين، والبتروكيمياويات، والزيوت، والصناعات الخفيفة.

وتبلغ مساحة جمهورية قراتشاي- شركس ١٤١٠٠كم٢ ، وتضم ٤ مدن، و١٠ مستوطنات، وعاصمتها شركسك، ويقدر سكانها بنحو ٤١٤٩٧٠ نسمة حسب الإحصاء الرسمي لعام ١٩٨٩. وتعتبر قراتشاي وشركس أكبر قوميتين مسلمتين فيها، وتصل نسبتهم مع بقية القوميات المسلمة فيها لنحو ٥٠٪ من جملة السكان، ويتبعون دينياً الإدارة الدينية لمسلمي جمهورية قراتشاي شركس التي يرأسها حالياً الأستاذ إسماعيل علي بروديوف.

جمهورية قبرداي بلغار:

تقع في وسط السفوح الشمالية لجبال القوقاز والسهول الملاصقة لها، وهي بلاد أكثرها جبلي تغطيها الممرات ومجاري المياه، ويزاول أهلها الرعي والزراعة، فيزرعون القمح والشعير، ويستخرج من معادنها تونفستين وموليبد توم، وفيها صناعات كيميائية، ومصانع للإسمنت، وغيره من مواد البناء.

وتبلغ مساحة جمهورية قبرداي- بلغار ١٢٥٠٠كم٢ وتضم ٧ مدن، وعدة مستوطنات، وعاصمتها نالجيك، وقدر سكانها بحوالي ٧٥٣٥٣١

نسمة بموجب إحصاء عام ١٩٨٩م.

ولمسلمي جمهورية قبرداي - بلغار إدارة دينية يرأسها حالياً الأستاذ شفيق أوتيس بشخاجيف.

أصل السكان:

القراتشاي والبلغار شعب واحد كما يقول علماء الأجناس والمؤرخون، ولكنهم يختلفون في أصله، ويؤكد أكثرهم بأنه ينتمي إلى قبائل الهون، والبلغار، والخزر، والقبجاق التركية التي استوطنت القوقاز، ثم اختلطت بغيرها من قبائل المنطقة، وخاصة باللان والشركس.

وفي الوقت الذي احتفظ فيه شعب القراتشاي والبلغار بلهجتهم التركية التي تنتمي إلى الفرع الغربي للغة القبجاق التركية، فقد اقتبس عادات وتقاليد جيرانه، حتى بات يعرف باسم اللان، وقيل إنه شعب ايبرو- قفقاسي (أصبح تركياً) بالاندماج في القبائل التركية التي سكنت بلاده.

والقراتشاي البلغار شعب جبلي كان يستوطن سهوب نهر كوبان في القديم، ولكن قبائل الشركس أجبرته على أن ينقل مساكنه إلى سفوح الجبال، فالجماعة التي سكنت وديان تبريدي - جوغتاي - اينجيك - ماراً في غرب جبال البروز عرفت بقراتشاي، والجماعة التي صارت في وديان باكسان - جيغيم جيرك في شرق جبال البروز عرفت بالبلغار، وهم يسمون أنفسهم مالقار.

أما جيرانهم الشركس فيسمونهم كوشا يعني الجبلي.

ولا يعرف الكثير عن تاريخ القراتشاي والبلغار، ولا عن نشاطهم الإنساني، ولكن يبدو أن خضوعهم لسيادة الدول التي سادت في المنطقة، واختلاطهم بشعوب وقبائل القوقاز طمس ماضيهم، ولم يكتب عنهم إلا النزر القليل الذي يبدأ بالإشارة إليهم في القرن السادس عشر الميلادي، وخاصة أخبار الحروب التي دارت رحاها مع قبائل قبرداي الشركسية التي ترد في أساطير باتيركارما، وكانشاف باي، وأجبرتهم على الانتقال من وادي باسهان إلى وادي كوبان.

وبعد أن احتلت روسيا بلاد القرم عام ١٧٨٣م أصبح نهر كوبان حداً فاصلاً بين روسيا وتركيا، وشكلت بلاد القراتشاي موقعاً إستراتيجياً للأتراك؛ لأن الطرق التي تصل أبخازيا وبلاد الشركس بشرق القوقاز تعبرها، واستيلاء الروس عليها معناه ضياع القوقاز من الأتراك. وقد انحاز القراتشاي إلى الأتراك بسبب ضغوط بعض القبائل الشركسية التي كانت روسيا تدفعهم إليها.

وفي المعركة التي دارت بين الروس والقوقازيين في جيغيم عام ١٨٠٤م كان القراتشائيون يحاربون في الصفوف الأولى ضد الروس. وبعد انتهاء الحرب الروسية عام ١٨١٢م، وبموجب معاهدة بلغراد التي أعادت رسم الحدود بين روسيا وتركيا، صارت بلاد قراتشاي داخل حدود روسيا.

ولكن ثار القراتشائيون ضد الروس، ووصل سفيرهم إلى أنابا، واستقبله محافظها التركي حسن باشا، وعاهدهم على المساعدة، وعين من أمرائهم إسلام كريمشا وهال والياً عليهم، ولكن لم يقدم الأتراك أية مساعدة لهم، فاضطر شعب قراتشاي للاعتماد على نفسه



رغم ضعف سلاحه وقلة عدده، مع أن القوات الروسية التي كانت تحت إمرة الجنرال إيمانول دخلت بلاده من ثلاث جهات، والتقت كلها بمواجهة جنود القراتشاي في ممرها ساوكا Hasavka ، وفي معركة غير متكافئة اضطر الأمير إسلام كريمشاوهال إلى الاستسلام في ٣ أكتوبر ١٨٢٨م .

ومع ذلك استمر القراتشائيون يقاومون الاحتلال الروسي في بلادهم، فكانت لهم ثورات متعاقبة، منها ثورة القاضي محمد هوبي في عام ١٨٤٥م، ثم اشتركت قبائل قراتشاي (مالقار) مع المجاهد الشيخ شامل الغمري في حروب طويلة ضد روسيا القيصرية، ولكن خذلان العالم الإسلامي لهم آنذاك أدى إلى هزيمة المسلمين، ثم هجرتهم من بلادهم إلى تركيا والشام فيما بين عامي ١٨٦٠ و١٨٧٠م، وكانت هجرتهم الأخيرة إلى تركيا عام ١٩٠٥م .

وعقب الثورة الشيوعية ساعد القائد مرزاقول كريمشاوهال من القراتشاي الذي كان يتولى قيادة القوقازيين على تشكيل جمهورية اتحاد شمال القوقاز في ١١ مايو ١٩١٨. ولكن لم تلبث هذه الجمهورية طويلاً؛ إذ غزاها الجيش الأحمر السوفياتي، وتحصن القراتشاي في بلادهم يدافعون عن حريتهم إلى منتصف عام ١٩٢٢م، وقد أخذ الشيوعيون في تطبيق سياسة فرق تسد للقضاء على روح وحدة الشعب واتحاده في محاربتهم، فجرى تقسيم بلاد القراتشاي والبلغار تقسيماً طولياً بدلاً من تقسيمها عرضياً ، فأوجدت مقاطعة قراتشاي - شركس الذاتية الحكم، ومقاطعة قبرداي بلغار الذاتية الحكم في عام ١٩٢٢م، ثم شكلت مقاطعة قراتشاي الذاتية الحكم في ١٩٢٦م، وخلال تطبيق النظام الشيوعي في مصادرة الأملاك، وفرض المزارع

الجماعية، قاوم شعب قراتشاي وبلغار ذلك مقاومة شديدة، وتمكن حسن عبد الكريم رئيس اللجنة الوطنية السرية من تطهير مقاطعة قراتشاي من الجيش الشيوعي في ١٨ مارس ١٩٣٠م، ولكن الدكتاتور السوفياتي جوزيف ستالين شن حملة شعواء ضد مسلمي قراتشاي بلغار حتى قضى على ٤٠٪ من عددهم، وقد استغل القراتشاي والبلغار الزحف الألماني النازي على روسيا في تطهير بلادهم من الشيوعيين السوفيات، ولكنها تعرضت لاحتلال ألمانيا في أغسطس ١٩٤٢م، واعترف الألمان لهم بوحدتهم وحقهم في تسيير شؤون بلادهم، وحريتهم الدينية والاجتماعية، وإعادة أملاكهم الخاصة.

وبعد هزيمة الألمان النازيين قامت القوات الشيوعية بالانتقام من شعب قراتشاي بلغار ابتداء من ١٥ يناير ١٩٤٣م، ثم اتخذ مكتب رئاسة مجلس السوفيات الأعلى قراراً بطرد شعب قراتشاي من بلاده في ٢نوفمبر ١٩٤٣م، والبلغار في ٨ مارس ١٩٤٤م، فقامت سيارات الشحن على مختلف أنواعها، وعربات القطار بنقلهم إلى آسيا الوسطى في ظروف قاسية، فمات نصف عددهم الذي كان يقدر بحوالي مائتي ألف نسمة.

ولكن نيكيتا خروشوف أعاد لهم ولغيرهم من الشعوب المنفية الاعتبار في حديث ألقاه في مؤتمر الحزب الشيوعي عام ١٩٥٦م.

فأعيد ثانية تشكيل بلادهم مقاطعة ذاتية الحكم في فبراير عام ١٩٥٧م، وعاد أكثرهم إلى بلادهم، وكان عدد القراتشاي العائدين إلى بلادهم ٦٧٨٣٠ نسمة، وعدد الباقين في آسيا الوسطى ١٣٥٧٠ نسمة عام ١٩٥٩م، وعدد البلغاريين العائدين إلى بلادهم ٣٤٠٨٨ نسمة، وعدد



الباقين منهم في آسيا الوسطى ٨٣١٢ نسمة في العام نفسه .

وأما في إحصاء عام ١٩٨٩م فإن عدد القراتشاي في الاتحاد السوفييتي السابق هو: ١٥٦١٤٠ نسمة، منهم ١٢٨٧٤٦ نسمة في مقاطعة قراتشاي - شركس، ويمثلون نسبة ٣١٪ من عدد سكانها البالغ عددهم ٤١٤٩٧٠ نسمة.

والبلغار عددهم في الاتحاد السوفياتي السابق ٨٨٧٧١ نسمة، منهم ٧٠٥٧١ نسمة في مقاطعة قبرداي بلغار، ويمثلون نسبة ٩,٣٦٪ من عدد سكانها البالغ ٧٥٣٥٣١ نسمة.

نسبة السكان في بلاد القراتشاي شركس والقبرداي بلغار:

حصلنا على أرقام من البلاد نفسها بنسبة كل طائفة من السكان تخالف بعض الشيء ما سجلته الكتب، وليس بإمكاننا التحقق من ذلك .

أولاً: جمهورية قراتشاي:

شركس ١٥٪ فيها كلها، والقراتشاي ٢٥٪، وهناك١٠٪ قوميات أخرى أفرادها مسلمون، وبلغ عدد السكان من غير المسلمين ٤٠٪ روس، وأرمن، وأوكرانيون، و١٠٪ قوميات أخرى غير مسلمة، فيها اليهود، وأناس غيرهم.

وفيها كلها الآن ١٣٠ مسجداً.

وبلغ سكان مدينة شركسك العاصمة ١٢٠ ألفاً، وتبعد موسكو ١٥٠٠ كم عن شركسك.



والحكم الآن لقراتشاي، فرئيس الوزراء منهم، وعدد الشركس فيها ٤٢ ألفاً، والنوغاي ٢٧ ألفاً، وأباظة ١٨ ألفاً .

ثانياً : جمهورية قبرداي شركس:

القبرداي ٤٥٠ ألفاً، والبلغار ٨٠ ألفاً.

وستأتي أحاديث عديدة مهمة عن هؤلاء الإخوة المسلمين أثناء الكلام على المشاهدات في اليوميات.

بلاد القراتشاي شركس

يوم الإثنين ١٤١٤/١/٢٢هـ، ١٩٩٣/٧/١٢هـ

في مدينة شركسك :

وقفنا في كتابنا في جمهورية الإديغي (الشركس) قبل الوصول إلى مدينة (شركسك) عاصمة جمهورية (قراتشاي شركس).

وكنا قادمين إليها بالسيارة من مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي .



مدخل مدينة شركسك

ففي الساعة الثانية عشرة ظهراً كنا ندخل أول ضاحية فيها ، فكان من المناظر منظر نهر كبير عليه جسر عبرنا فوقه ، ولكن



النهر غير مفعم بالمياه، ومحطة لبيع وقود السيارات رأينا عندها صفاً طويلاً من السيارات التي ينتظر أصحابها الحصول على ما يحتاجونه في سياراتهم للوقود، وليس معنى ذلك أن البلاد تعاني من مشكلة في نقص الوقود، ولكن الأمر يتعلق بالإدارة، فالوقود موجود بكثرة في جمهورية روسيا الاتحادية التي تعتبر هذه الجمهورية المسلمة جزءاً منها من الناحية السياسية، ولكن محطات بيع الوقود قليلة، والموظفون يتباطؤون في أداء أعمالهم، مثلهم في ذلك مثل سائر موظفي الخدمة العامة هنا؛ لأنه لا توجد لديهم حوافز ترغيبية، ولا موانع ترهيبية تحملهم على الإسراع فيه.

ووقفنا عند فندق شركسك، وهو الفندق الرئيس في المدينة الذي يفترض أن نسكن فيه، فهاتفنا عدداً من إخواننا الذين نحمل هواتفهم، فاستجاب هاتف الأخ (عبد العزيز شعيب)، وهو سوري عربي لا يعرف من لغات القوقازيين شيئاً، إلا أنه ذو أصل شركسي، وهو متقاعد كان متخصصاً بتعليم الصم والبكم، وقد ردت امرأة من بيته عربية اللسان تخبر بأنه موجود الآن في (المعهد الإسلامي)، وكانت عبارة المعهد الإسلامي أول عبارة سارة تداعب أسماعنا وتشنف آذاننا منذ أن وصلنا المنطقة. ثم ذكرت وصفاً للبيت أبلغته السائق الروسي.

كنا ننتظر أمام فندق (شركسك) الذي يقع على شارع عام رئيسي من المدينة، اسمه شارع قفقاز، فلاحظت أن سيارات الركوب الصغيرة هنا كثيرة إلى جانب السيارات الأخرى المألوفة في البلدان التي كانت تسمى بالاتحاد السوفييتي، مثل سيارات النقل الضخمة الخشنة المنظر والحركة، والحافلات العامة في المدينة.



شارع واسع في ضواحي شركسك

وهذا الشارع مثل غيره من الشوارع المهمة في المنطقة، قد غرست على جانبيه أشجار الظل الوارفة الآن، وللظل في هذه البلاد في هذا الفصل القيظي أثر جيد في النفس؛ لأننا شعرنا بالحر فيها، ليس لكونها شديدة الحر، وإنما لكون بيوتها وأبنيتها مهيئة لمكافحة البرد، لا لمكافحة الحر؛ لأن زمن الحر قصير، ولم يبلغ الناس هنا في ابتغاء الكماليات مبلغاً يجعلهم يحسبون للراحة حساباً في هذا الزمن القصير.

ولذلك كانت الشمس حارة لا يستطيع المرء أن يقف فيها إلا

مضطراً؛ وإلا فإنه يسارع باللجوء إلى ظل شجرة أو مبنى أو نحوهما.

ذهبنا إلى بيت الأخ (عبد العزيز شعيب)، ودليلنا هو سائق سيارتنا الروسي الذي لم ينبس ببنت شفة منذ أن غادرنا معه مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي في التاسعة من هذا الصباح.

وقد دار في عدد من الشوارع وهو يسأل حتى عرفنا المنزل، فرحبت بنا فيه سيدة عربية سورية متدينة كما تفعل الأخوات السوريات المتسترات، وهي زوجة الأخ عبد العزيز شعيب، وذكرت أنها هاتفت ابناً لها اسمه سهيل لكي يذهب معنا إلى (المعهد الإسلامي) لأنه لا يوجد فيه هاتف .



أطفال في شركسك

يقع منزل الأخ عبد العزيز في الطابق الثالث من بناء متعدد الطوابق، وهو واحد من عدة أبنية على هيئة تؤلف جزءاً من الحي الذي يقع فيه من المدينة، وكلها أبنية حكومية كانت قد بنتها الحكومة لتؤجرها شققاً سكنية لموظفيها وعمالها، أو لأفراد الشعب بأجور رخيصة؛ لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة للحصول على المساكن لعامة الناس في المدن.

ولاحظت أن شرفات هذه الشقق ونوافذها العامة قد حفلت بالفرش والأغطية و(البطانيات) التي نشرها أصحاب المنازل من أجل أن تأخذ نصيبها من الشمس، أو من أجل أن يجف ما غسل منها. وهي كثيرة، تكاد تجلل الشرفات والنوافذ مما يدل على أن الشقق تلك غير واسعة، كما يدل على أنه لا يوجد فيها أسطحة خاصة أو عامة لكي ينتفع منها الجميع.

جلسنا في غرفة الجلوس في المنزل، وفيها مكتب، وخزانة فيها كتب عربية إسلامية عديدة، وذلك في انتظار حضور الأخ سهيل بن الأخ عبد العزيز بينما كانت والدته تجهز القهوة، وترحب بنا.

ولمناسبة دخول بعضنا للحمام في البيت لأننا لم نجد مكاناً مناسباً لذلك منذ أن غادرنا (ميكوب) في الصباح أخبرونا أن المياه تنقطع عن المنازل في هذه المنطقة ما بين الظهر والعصر مع كونها واقعة على نهر ثر المياه.

ثم جاء الأخ سهيل بن الأخ عبد العزيز، ويقيم الآن هنا، وكان ضابطاً في الجيش السوري، وصار يتولى تقديم القهوة التي صنعتها والدته تساعدها إحدى الجارات التي تبين لنا أنها امرأة مسلمة جاءت لزيارتها.

معهد الإمام أبي حنيفة



معهد الإمام أبي حنيفة الإسلامي في شركسك

ما أجمل وقع هذه العبارة في نفوسنا؛ بل ما أجملها في أبصارنا وأسماعنا، فقد وقفنا عند بناء كبير بمعنى أنه ذو مقدمة، ومتعدد الطوابق، وعليه لافتة واضحة بكتابة عربية مبينة (معهد الإمام أبي حنيفة الإسلامي: أسس عام ١٩٩٣م)، وتحتها العبارة نفسها باللغة الروسية التي هي اللغة العامة المشتركة التي يعرفها الجميع من أهل البلاد.

استقبلنا عند بوابة المعهد الأخ الأستاذ عبد العزيز شعيب، وهو كما قلت عربي سوري شركسي الأصل إلا أنه لا يعرف اللغة الشركسية، فكان يخاطب الإخوة المسلمين في هذه البلاد بلغة عربية مبسطة، وكان يوضح ذلك بصبر عجيب ذكر لي أن سببه أنه كان

مختصاً بتعليم الصم والبكم.

استقبلنا أيضاً الشيخ إسماعيل بستان نائب المفتى الذي هو مدير الإدارة الدينية هنا، وبعض الطلبة والمدرسين في المعهد، فقدم أحدهم بأنه الأستاذ (رسول ذو القرنين)، وقدم طالب مع من قدمهم من الطلاب الحاضرين بأنه الطالب (رسول بن خالد)!، قلت ممازحاً: أهما رسولان؟ قال: نعم هكذا سماهما أهلهما. فقلت: لا مانع من ذلك إذا خلا اسم رسول من شيء يشعر بأن المراد أنه الرسول من عند الله؛ لأنه قد يكون الأصل في التسمية أنه الرسول من جهة سلطان، أو أمير إلى جهة من الجهات.



في المعهد الإسلامي الشيخ عبد العزيز شعيب في أيسر الصورة على يساره المؤلف، ويمين الصورة اثنان من طلبة المعهد

أعجبت وأنا أدخل المعهد بمبناه الكبير الذي يسترعي الانتباه؛



لا سيما بعد القحط الديني الموجود في مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي التي كنا فيها وغادرناها هذا الصباح، ذلك القحط الديني المريع الذي تمثل في عدم وجود أي مسجد في العاصمة، وعدم وجود أي فصل دراسي فيها فضلاً عن وجود مدرسة إسلامية، فسألت الأخ عبد العزيز شعيب عن هذا المبنى فأجاب أنه هدية من رئيس الجمهورية قدمه للإدارة الدينية هدية من الحكومة ليكون معهداً إسلامياً!!!.

وحتى (الإدارة الدينية) غير موجودة في جمهورية الإديغي - ولو بالاسم - فهذه أول عبارة تذكر وجود الإدارة الدينية في عاصمة إقليمية في هذه المنطقة من روسيا الاتحادية منذ أن غادرنا مدينة (سيمبرفول) عاصمة القرم الواقعة في البحر الأسود مجاورة لمنطقة القوقاز.

وذكروا أن هذا المبنى كان في السابق مقراً لروضة أطفال.

أول ما أرونا منه المسجد، وهو قاعة مفروشة لا بأس بسعتها، ثم المطبخ حيث يتناول بعض الطلاب طعام الغداء، وفيهم من يسكنون في المعهد ويأكلون، وهؤلاء عددهم في حدود ١٥طالباً، وهذا رقم - رغم ضآلته- بالنسبة إلى أعداد الطلاب التي درج الناس على أن يشاهدوها في المعاهد الداخلية، فإنه جيد هنا لقلة الذين يعرفون أي شيء من المعرفة الإسلامية، وهو بداية طيبة، وإن كانت البلاد تحتاج إلى مئات من طلبة العلم المتخرجين في العالم الإسلامي.

وخرجنا من المبنى إلى حديقة له واسعة بها أشجار كبيرة ذات ظل وارف، وتقع على شارع رئيس آخر يمكن أن تقام عليه بوابة رسمية للمعهد، ثم صعدنا للطابق الثاني، وفيه عدة مكاتب واسعة، وغرف

للمدرسين، وقاعة واسعة للنوم للطلاب الذين يعيشون داخل المعهد.



صورة لشارع أكتوبر في شركسك

في فصل دراسي:

أدخلونا فصلاً دراسياً جيداً؛ لأنه كان أسس في الأصل ليكون فصلاً دراسياً في روضة أطفال، ولكننا وجدنا الطلاب من الكبار الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والعشرين تقريباً كلهم جاء لتعلم العلم والدين، وبعضهم لم يكن يعرف أي شيء من مبادئ العربية، ولا من أركان الدين الإسلامي قبل ذلك، فبدؤوا بتعلمه على كبر.



وقد جاملونا بأن كتبوا أسماءنا بالعربية على السبورة، وأمروا أحد الطلبة أن يقرأ اسم أحدنا، فيقوم صاحب الاسم ويعرف نفسه لهم.



طلاب المعهد الإسلامي في شركسك في الفصل

وألقيت فيهم كلمة بعربية مبسطة رجاء أن يفهموها بينت فيها هدفنا من القدوم إلى هذه البلاد، وشرحت لهم ما لا يعرفونه عن رابطة العالم الإسلامي.

وبعد الجولة كان وقت صلاة الظهر قد أزف، فصلينا معهم صلاة الظهر، وجمعنا معها صلاة العصر.

غداء المعهد:

هذا المعهد ناشئ، وليست له موارد مالية مقررة من أحد، وإنما يجمعون ما يصل إليهم من تبرعات قليلاً قليلاً. ومع ذلك عندما أردنا الانصراف استبقونا وقالوا: إن غداء المعهد جاهز.

كانت بنا حاجة إلى الغداء، وكان غداؤهم جيداً، فيه الخبز، ومرق من الفاصوليا الناشفة، وسلطة من الطماطم والخيار، ثم جاؤوا بشواء جيد من اللحم، وأما المشروبات فإنها الأشربة الغازية، ثم بعد ذلك القهوة.

وقد شربنا هنيئاً، وأكلنا مريئاً.

إلى الإدارة الدينية:

كان الشيخ إسماعيل بيرديف رئيس الإدارة الدينية، ويسمونه هنا المفتي، خارج العاصمة عندما جئنا، وكانوا أخبروه بأننا سنقدم، فقد هاتفهم إخواننا في (ميكوب)، وقد حضر قبيل تركنا المعهد، فصحبنا مع نائبه الشيخ إسماعيل بوستان، والأخ عبد العزيز شعيب على سيارتنا التي هي حافلة واسعة جيدة، لا تضيق بخمسة ركاب أو بستة إذا انضموا إلينا.

سلكنا شارع (أكتوبر سكايا)، وهوشارع مهم، إلا أن أهم شارع في المدينة هو شارع لينين جرياً على عادة الشيوعيين في تسمية أهم شارع في المدن التي يسيطرون عليها، وأهم ميدان فيها باسم لينين.

ووصلنا الإدارة الدينية، وتقع على ناصية شارعين مهمين، أحدهما شارع لينين، والثاني شارع قفقازيا.

وقد كتبوا عليها لافتة باسمها الرسمي هكذا: (الإدارة الدينية لمسلمي قرتشايا - تشركسيا - استفرابوليا) .

و(استفرابوليا) منطقة، أو لنقل ولاية مجاورة أهلها في أكثرهم من الروس وغيرهم من غير المسلمين، وكانت مركزاً للمنطقة بحيث كان أهل جمهورية قراتشاي شركس يرجعون إليها لكونهم مربوطين إدارياً بها، واسمها الرسمي (إستفرابول) .

ولذلك يقول اخواننا باعتزاز: إننا كنا في السابق مضمومين إلى (إستفرابول)، والآن إخواننا المسلمون فيها مضمومون إلينا.

أما بقية شؤون الإدارة فإنها مستقلة في المنطقتين عن الأخرى، وكل واحدة منهما تابعة لجمهورية روسيا الاتحادية، شأنها في ذلك شأن جمهوريات القوقاز الشمالي كلها، ما عدا جمهورية الشيشان التي أعلنت استقلالها عن روسيا، ولكنها لم تستطع الحصول على الاعتراف باستقلالها من أية دولة، حتى من الدول الإسلامية خارج ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي .

عقدنا جلسة في الإدارة الدينية اشترك فيها منهم المفتي الشيخ إسماعيل بيراديف، ونائبه الشيخ بوستان، والأخ عبد العزيز شعيب مع وفدنا وفد رابطة العالم الإسلامي.

أخبرونا أن الإدارة الدينية هذه حديثة النشأة لم تكد تمضي على إنشائها سنتان إذ أنشئت في عام ١٩٩١م.

وذكروا أن هذا المكتب الذي تشغله الإدارة، وهو شبيه بالشقة، يقع في مبنى متعدد الطوابق تملكه الحكومة؛ لذلك سمحت لهم بالسكن فيه بالمجان. لكونهم غير قادرين على دفع أجرة لأي مكان

تحتاجه الإدارة، لقلة موارد الإدارة الدينية أو انعدامها، ويكفي شاهداً على ذلك أن المفتي ونائبه ليس لهما راتب، وأنهما يعملان متبرعين رغم كونهما متفرغين للعمل الذي يستغرق كل الوقت منهما.



في دار الفتوى في شركسك (المفتي بالعباءة) على يمينه المؤلف، وعلى يساره نائبه

قالا: إن أقاربنا، وهم من الفلاحين يساعدوننا بما نحتاج إليه من القوت الضروري. وقد شكوا إلينا أن بعض المسؤولين في هيئة الإغاثة الإسلامية في جدة حضروا عندهم أكثر من مرة. ولكنهم صاروا يناصرون أناسا آخرين ليسوا من أهل العلم ولا من المعروفين بالدين، ويزعمون أنهم أعضاء في الحزب الإسلامي الذي ليست له قوة ولا تأثير

في البلاد، وأنهم يخشون من فتنة قادمة إذا استمر هذا الأمر.

بل ذكروا أن بعضهم يشنع عليهم باتهامهم بالشيوعية من دون أن يكون لذلك أي أساس، ثم بحثوا معنا ما يحتاجون إليه في أمور دينهم، وبينا لهم ما تستطيع الرابطة أن تقدمه من ذلك.

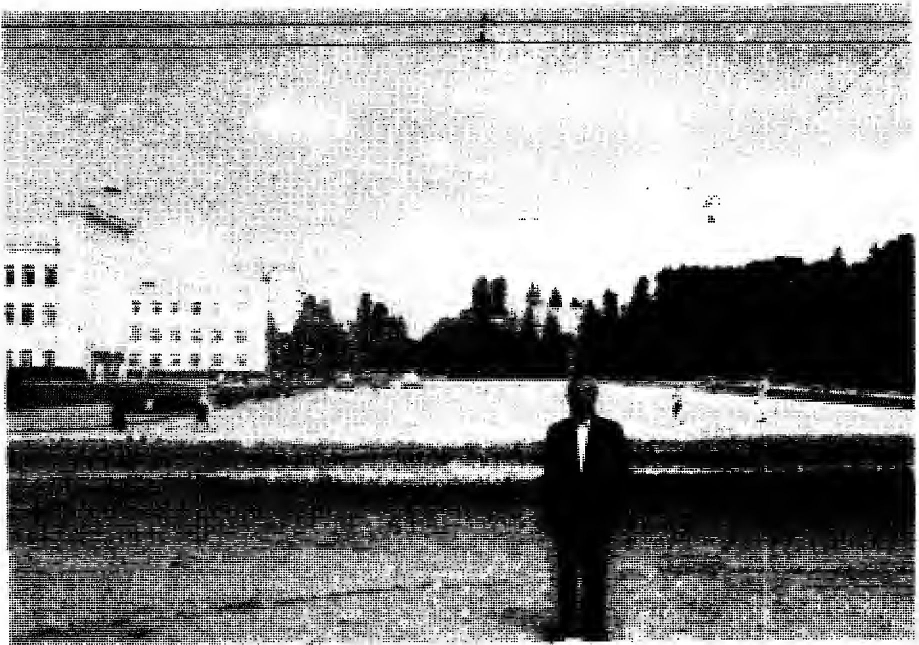
وهنا تحدث الأستاذ إسماعيل علي بريدييف بأن هذا المقر افتتح في شهر فبراير ١٩٩١م، ويعمل فيه خمسة موظفين، وأن الحكومة المحلية منحتهم المقر ريثما يتم إيجاد مقر ثابت لهم؛ لأنهم يخططون في بناء مقر للإدارة الدينية بجوار المعهد الإسلامي، وأن العمل الإسلامي يتم عموماً بتبرعات المحسنين، وأن الأهالي المسلمين رغم ظروفهم الاقتصادية السيئة لا يبخلون في دعم المشاريع الإسلامية، وما يتلقونه من مساعدات خارجية محدودة لعزلة بلادهم.

ثم أنهى حديثه بقوله بأن جميع القرى بها مساجد، وأكثرها تحت الإنشاء، وأن المسلمين يشكلون أغلبية في هذه الجمهورية الذاتية الحكم، فعدد سكانها أكثر من نصف مليون نسمة، منهم ٤٢٪ من قومية قراتشاي، وهي من القبائل التركية، ثم الشركس ونسبتهم ١٣٪، ويأتي بعدهما قوميتا النوغاي والأبخاز المسلمتان.

وقد شكرته على ما لقيه وفد الرابطة من الحفاوة، وأكدت له استعداد الرابطة في التعاون معه، وتوفير بعض المنح الدراسية، وتأمين الكتب الإسلامية، وتقديم مساعدات معنوية ومادية، وإعانات مالية فورية للمشروعات الإسلامية القائمة.

إلى حديقة الأطفال:

سرنا مع شارع لينين غير بعيد، فمررنا بمبنى أبيض الطلاء أمام ميدان لا يزال ينتصب فيه تمثال لينين أمام حديقة جيدة ذكروا أنها تسقى من ماء المطر، ولا تحتاج إلى أن تسقى من غيره، وأنه كان قد أصابهم مطر قبل ثلاثة أيام.



المؤلف أمام البيت الأبيض الحكومي في شركسك

ولا حاجة إلى القول بأنهم لم يغيروا اسم الشارع شارع لينين، ولم يزيلوا تمثاله الذي لا يزال منتصباً منذ الشيوعية؛ بل إنهم لا يزالون يسيرون على النظم الشيوعية.

وقفنا في هذا المكان الجميل بجانب الحديقة حيث يوجد عدد من

الأبنية المهمة، منها مبنى المسرح الوطني.

ثم اخترقنا حديقة واسعة وصلنا فيها إلى رأس تلة غير بالغة الارتفاع تتوسطها مسلة تذكارية أقامها الروس تذكاراً لوقعة حربية هزموا فيها الأتراك، وكان قائد الجنود التركية فيها اسمه (بطل باشا)، كذا قالوا، ولا أعتقد دقة ذلك.

وتشرف هذه التلة العالية على حديقة جميلة يسمونها (زيلوني إستروف) بمعنى: الجزيرة الخضراء، وينزل إلى الحديقة بدرج من هذه التلة المرتفعة حيث يجري النهر.

وفي الحديقة ملاعب عديدة للأطفال، وأماكن جميلة للنزهة، وكان الدخول إليها بالمجان في القديم؛ غير أنهم فرضوا الآن رسماً رمزياً لدخولها.

إلى أرض الجامع :

لم ندخل الحديقة لضيق الوقت، وعدنا إلى السير مع شارع لينين، وهو طويل ممتد في المدينة حتى يخرج من إحدى ضواحيها، وعلى هذا الشارع الأبنية العالية المتعددة الطوابق التي تضم شققاً سكنية بنتها الدولة، وتؤجرها على المواطنين، وهي الوسيلة الوحيدة لحصول أي مواطن على شقة سكنية.

ومررنا بمستشفى حكومي، ذكروا أنه مستشفى المدينة، وإن كان واحداً من عدة مستشفيات فيها، ذكروا أن العلاج كان مجانياً في جميع المستشفيات، أما الآن فإنها صارت تتقاضى أجوراً ضئيلة على من يدخلونها للعلاج.

الكنيسة الوحيدة:

مررنا بكنيسة ذات مظهر متوسط الجودة، ذكروا أن الشيوعيين كانوا صادروها واستعملوها مستودعاً لهم، ولكن المسيحيين استعادوها من الحكومة، وأصلحوها وصاروا يستعملونها لعبادتهم، والمسيحيون في هذه الجمهورية كثير ذكر لنا الإخوة المسلمون أن نسبتهم تبلغ النصف من بين سكانها، رغم كونها منذ تاريخ قديم موطناً للمسلمين القرتشاي والشركس، ولكن أهلها، وبخاصة الشركس، هجروا منها مثلما فعل بأبناء عمومتهم الشركس الآخرين في بلاد القوقاز الذين غادروا بلادهم في هجرات كثيرة كان أهمها من حيث الحجم هجرتهم في عامي ١٨٦٠ و ١٨٦١م، فتفرقوا في البلدان، وكان نصيب الأردن وسوريا من البلدان العربية هو الأكبر، وإن كان بعضهم قد توجه إلى مصر وحتى إلى اليمن إلا أن أكبر الأعداد من الشركس كانت هجرتها إلى تركيا.

وفي مقابل هؤلاء الإخوة المسلمين المهاجرين حضرت مع السلطات الروسية أعداد كبيرة من الروس وغيرهم من الأوربيين السلافيين كالأوكرانيين، والروس البيض وغيرهم، فسكنوا البلاد بل استأثروا بسكناها حتى صارت لهم الأغلبية الكبيرة في جمهورية الإديغي التي قدمنا إلى هذه البلاد منها اليوم.

أما في هذه الجمهورية فإنهم يؤلفون الآن نصف السكان تقريباً فيها والنصف الآخر من الإخوة المسلمين ما بين قرتشاي يتكلمون فرعاً من اللغة التركية، ومن شركس يتكلمون اللغة الشركسية.

ولا جامع فيها :

ومع أن المسلمين يؤلفون النصف من سكان الجمهورية، فإنه لا يوجد في عاصمتها (شركسك) هذه جامع واحد؛ بل لا يوجد فيها أي مسجد مستقل، وإنما يوجد مصلى اتخذ حديثا داخل المعهد الإسلامي، وهو إحدى غرفه الكبيرة، وقد أدينا فيه صلاة الظهر هذا اليوم.

وإنما يوجد الآن عزم عند الإخوة المسلمين الذين يتزعمهم المفتي ومن معه في الإدارة الدينية على بناء جامع كبير يسمونه (جامع شركسك).

وقد منحت الحكومة لهم أرضاً واسعة على طرف شارع لينين المهم لكي يقام عليها الجامع مساحتها عشرة آلاف متر مربع من دون مقابل.

وتقع في منطقة جديدة من ضاحية جيدة، يسكن فيها جماعة من المسلمين يؤمل أن يزيد عددهم إذا بني فيها الجامع.

وقفنا على الأرض فألفيناها خضراء ذات بساط سندسي كثيف تظلله أشجار قليلة عالية.

إلا أن الذي أبداه هؤلاء الإخوة وأعادوه هو أن جهودهم تقصر عن بناء الجامع؛ لأنه ليست لديهم القدرة على ذلك، ومع أننا وجدناهم أحاطوا الأرض بسور جيد ذكروا أن أحد الإخوة من التجار الأتراك كان زارهم، ورأى الأرض فقدم لهم تبرعاً سوروها به.

كما رأينا فيها بعض القطع الخرسانية الضخمة، ذكروا أنها تبرع من أحد المسلمين الذين حجوا هذا العام، وأنه عندما عاد حثهم على بناء الجامع، وقدم هذه القطع الخرسانية القوية التي توضع في أساسات الأبنية المهمة لتوضع في أساس بناء المسجد.



على أرض المسجد الرئيسي في مدينة شركسك

فأخبرتهم أننا سوف نقدم لهم مبلغاً عاجلاً من المال إسهاماً من رابطة العالم الإسلامي في نفقات تأسيس الجامع، وأخبرتهم أنهم إذا أنفقوا ذلك مع ما قد يحصلون عليه من مساعدة من حكومتهم؛ سواء أكانت مساعدة مالية أم عينية على بناء الجامع، فإن الرابطة سوف تدفع لهم معونة أخرى من ميزانيتها، وتتوسط لدى المتبرعين من أهل الخير في بلادنا للإسهام في بناء المسجد، ولا ينبغي أن يمنعهم ضيق ذات اليد عن البدء في عمارته، لأننا في رابطة العالم الإسلامي قد جربنا أن المساجد التي بدأ العمل بها فإن بناءها يكون أقرب لإقبال المتبرعين

على إكمالها من المساجد التي لم يبدأ بها.

ومع ضيق ذات اليد عند هؤلاء الإخوة، فإنهم يخططون لبناء مركز إسلامي متكامل يضم المسجد الجامع، ومكتبة، ومدرسة إسلامية.

وأخبرونا أنهم يقدرون ما ذكرنا لهم من وجوب البدء بعمارة الجامع، إلا أن الخرائط والتصميمات لم تكتمل بعد عندهم، وأنهم ينوون البدء بالبناء فور إكمالها.

مسجد دورجبا:



مسجد دورجبا ضاحية في شركسك

للمساجد في البلدان الشيوعية السابقة أهمية كبيرة لكونها تكاد تكون هي المؤسسات الإسلامية الوحيدة الموجودة فيها، فالأوقاف الإسلامية صودرت منذ أزمان، والمدارس الإسلامية لم تعد موجودة منذ أن حرم الشيوعيون الملحدون التعليم الإسلامي.

ووجود المسجد في بلد أو قرية معناه حرص أهل هذه البلدة على العودة إلى المنابع الثقافية الإسلامية الأصيلة، وإمام المسجد هو الذي يقوم بالأعمال الدينية كلها في البلاد، فهو يؤم الناس في الصلاة، ويرشد كبارهم، ويعلم صغارهم، وهو الذي يجهز الجنائز، ويقسم المواريث طبقاً للشريعة الإسلامية إذا تراضى عليها الخصمان، وهو الذي يفتي المسلمين الفتاوى اليومية المتكررة.

ولكون أهل هذه البلاد يمرون الآن بمرحلة اقتصادية حرجة هي المرحلة الفاصلة ما بين الشيوعية ذات الاقتصاد الموجه توجيهاً كلياً من الدولة، وبين مرحلة الاقتصاد الحر المعروفة بمرحلة اقتصاد السوق، لذلك تراهم يعجزون عن إكمال ما بنوه من المساجد إلا إذا رزقوا الحصول على من يتبرع لهم بذلك من خارج بلادهم.

لذلك حرصنا على زيارة مساجدهم، والاطلاع على ما قطعته من مراحل، وحتى المساجد التي قد استكمل بناؤها نحرص على الاطلاع عليها من أجل أن نعرف مدى الانتفاع منها، مثل نشاط إمام المسجد، ووجود فصل دراسي للتعليم الإسلامي فيه .

توجهنا بعد زيارة أرض الجامع في هذه العاصمة من عواصم المسلمين حسب التعبير الرسمي التي ليس فيها مسجد جامع، ولا مسجد غير جامع، إلى زيارة ضاحية في المدينة، ووصفها بعضهم بأنها

قرية، وهذا هو الصحيح؛ لأنها تبعد عن قلب مدينة شركسك سبعة كيلو مترات، واسمها دورجبا.

مررنا بنهر معروف هنا اسمه (نهر كوبان) نزر المياه، وذكروا أن السبب في ذلك أن الحكومة الروسية سحبت من مياهه قناة كبيرة تكاد تبلغ أن تكون نهراً صغيراً لكي تنتفع منه ولاية (إستفرابول) المجاورة التي يتألف سكانها معظمهم من الروس.



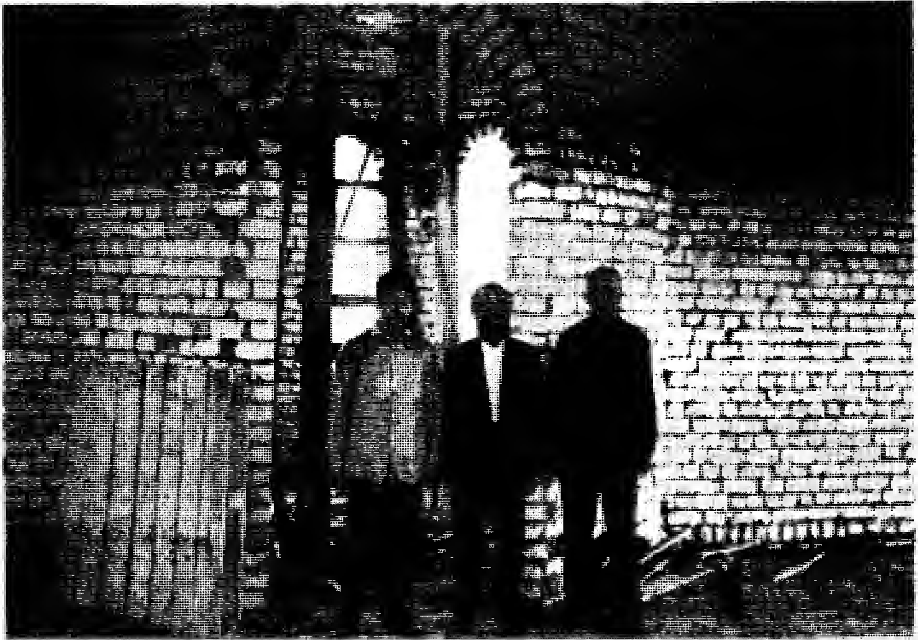
مسجد دورجبا قرب شركسك

ووقفنا عند مسجد القرية قرية (دورجبا)، وهو صغير أقيم بجهود متواضعة من أهل هذه القرية، ولم يتسلموا تبرعات من غيرهم لكونهم لم يحسنوا الاتصال بأحد من المحسنين المتبرعين كرابطة

العالم الإسلامي.

ووجدنا إمام المسجد الأخ إبراهيم بن حضرت، والمؤذن خليس بن سوختا، وبعض الإخوة المسلمين الذين ذكروا أن سكان القرية أكثرهم من المسلمين، وأن عددهم (٧٠٠) أسرة، وأنهم يتألفون من القرتشاي والشركس. كما ذكروا أن من بين سكان القرية بعض الروس الذين يؤلفون (٣٠٠) أسرة، فمجموع سكان القرية ألف أسرة.

ومن المهم هنا في هذه البلاد التي هي من مواطن المسلمين أن يسأل من يزورها عن أهل القرية أهم من المسلمين، لأن بعض القرى يكون جميع سكانها من غير المسلمين، وهؤلاء عمادهم من الروس في الأكثر.

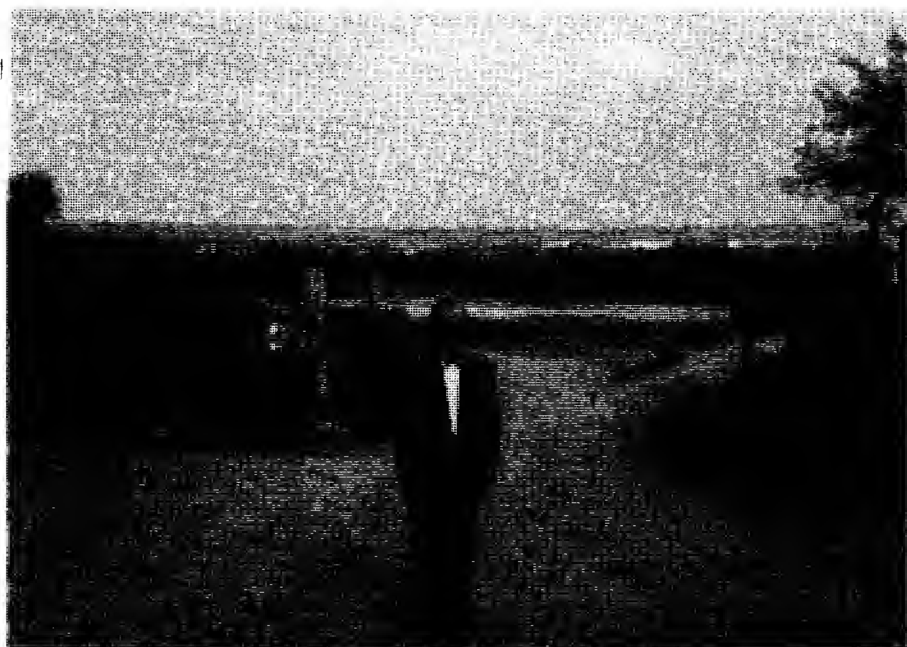


المؤلف في محراب مسجد دورجبا بين إمام المسجد إبراهيم بن حضرت على يمينه، ومؤذنه خليس بن سوختا على يساره

وجدنا المسجد قد قارب على الانتهاء إلا المنارة، فإنهم جعلوها على هيئة قبة عالية في مقدمته من الخشب.

إلى بلدة الأباظة:

ولم نقل الأباظيين لئلا يلتبس على بعض الناس بأنهم من أهل المذهب الإباضي الذين هم معدودون من الخوارج، مع أن الإباضيين الذين هم من الخوارج تكتب بالضاد أخت الصاد، وليست بالظاء أخت الطاء، وذلك لكونهم منسوبين إلى عبد الله بن إباض.



المؤلف في أرض المسجد القديم في قرية يسيج على ضفة نهر كوبان

واسم القرية (يسيج) ذكروا أن أهلها من المسلمين المتمسكين

بدينهم، وأنهم هاجروا من بلادهم (أبخازيا) منذ زمن .

وصلنا إلى هذه القرية التي لا تبعد كثيراً عن مدينة (شركسك) مع طريق حالته سيئة جداً إذ تكثر فيه الحفر والنقر، وليس له أرصفة؛ بل إننا رأينا في مكان الأرصفة في كثير من الأماكن حفراً مليئة بالماء الآسن المتخلف من مياه الأمطار التي تكثر في هذا الموسم من السنة.

وأراضيه مثل غيره من أراضي المنطقة مغطاة بطبقة كثيفة جداً من الأعشاب الوحشية النامية من دون أن تزرع، ولم أقل الأعشاب البرية؛ لأن هذه الأعشاب الكثيفة موجودة في شوارع المدينة والقرية التي لا يطأها الناس.



المرافقون يصلون العصر في مسجد يسيج

وأما البيوت فإنها في المنطقة كلها من الآجر الأبيض، وأكثرها من طابق واحد مسقف بسقف مسنم من الصفيح الأبيض.

ومن الطريف أننا مررنا بامرأة تطلي الباب الخارجي لبيتها بطلاء أخضر، وهي صاحبة المنزل وليست عاملة من العمال.

مقبرة المسلمين:



أحد القبور في مقبرة يسيج عليه صورة المتوفى

وقفنا عند باب المسجد، وذهب ذاهب من أهل القرية ينادي

المسؤولين عن المسجد، فانتهزت الفرصة لرؤية مقبرة مجاورة للمسجد تماماً، وإن تكن منفصلة عنه، وتقع إلى يساره جهة الغرب منه، وقبلة المسجد إلى الجنوب.

تقع المقبرة على ضفة عالية من النهر لا يفصلها عن النهر فاصل، والنهر جم المياه، ولكن شاطئه مهمل تفوح روائح الماء المنتن.

ومع ذلك وجدتهم صوروا صور المقبورين على شواهد القبور، وكان معي المفتي ونائبه، فسألتهم عن التصوير على القبور، فذكروا أنه بدأ عندهم حديثاً، وأنهم لا يجيزونه، ولكن الناس لا يرجعون إليهم، ولا يستفتونهم فيه، فقلت له: إنكم ينبغي أن تبادروهم بإيضاح عدم جواز ذلك لكونه بدعة لا تجوز، كما أنها تخالف الواقع، فهم يرسمون صورة الميت على شاهد قبره جميلة يختارونها من صوره عندما كان شاباً، ولو كان مات شيخاً هرماً، فهي تخالف الواقع في الدنيا قبل أن يموت، وفي حالته التي هو عليها الآن في قبره.

وقد رأيتهم كتبوا على أحد القبور اسم صاحب القبر، وهو (يرز أمير بن جنبوت) ولد عام ١٩٢٥ وتوفي عام ١٩٩٢م.

والكتابات على شواهد القبور كثيرة، بخلاف الصور فإنها قليلة جداً.

يتكسب من أعشاب المقبرة:

وجدنا أرض المقبرة قد التفت فيها الأعشاب وتكاثفت، وذلك لكونها مسورة بسور له باب يغلق دون الحيوان، ومن لا شأن له بها من الناس، لذلك كثرت أعشابها وطالت، ورأيت فيها أكواماً مكومة

من هذه الأعشاب التي قطعت وكومت للانتفاع بها في أعلاف الحيوان ولما سألتهم عن أكوام الأعشاب هنا ذكروا أنها لإمام المسجد، وأنها هي مصدر الدخل الوحيد له مقابل عمله في المسجد، فهو لا راتب له، والإخوة المسلمون على حالة من الضعف المالي بحيث لا يستطيعون بذل أية مساعدة له؛ لذلك يقطع هذا العشب من المقبرة وينتفع به.



أكوام العشب من أرض المسجد في قرية يسيج

وعمل الإمام هذا هو ما ذكره بعض الإخوة هنا، وهو أن يحرصوا على هذه الأعشاب الكثيرة، ويشتري من يستطيعون منهم عدداً قليلاً من المواشي، فيعيش على ما يحصل عليه منها من لبن وزبد على أن يخزن ما يحتاج إليه في الشتاء من علف عندما يقطعه في فصل

الصيف.

مسجد البلدة:

حضر إمام المسجد الأخ حمزات حاجي سوقان، وهو من الإخوة (الإباظة) هكذا يسمون الجمع إباظة، والمفرد أباظة. وقد عرفنا في بلادنا أناساً من هؤلاء الإخوة، فكنا نسمي في مصر والشام الفرد منهم أباظة، ومنهم -على سبيل المثال- فكري أباظة رئيس تحرير مجلة المصور.

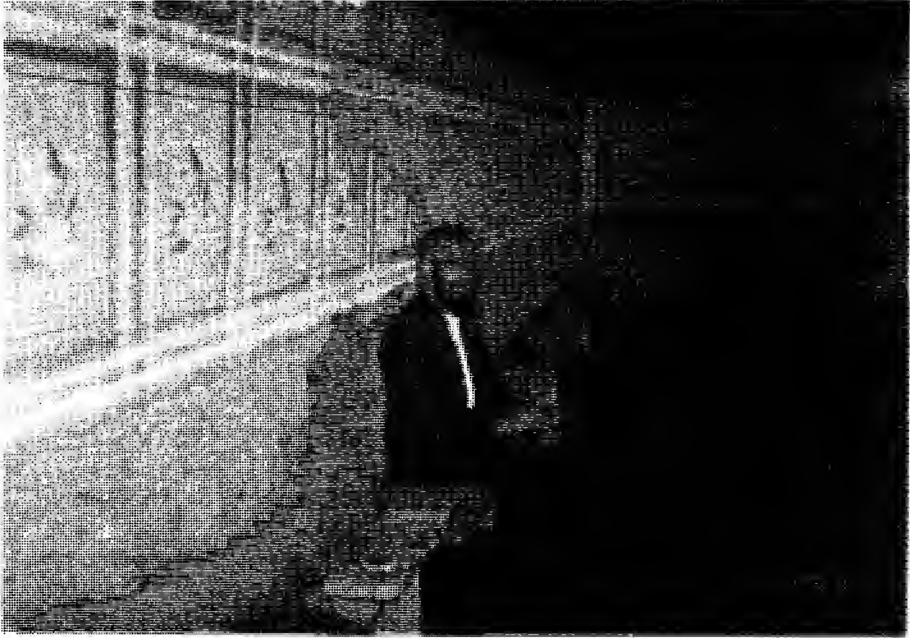
كما حضر عدد من الإخوة المسلمين وسألتهم عن أعشاب هذه المقبرة التي قطعوها وكوموها أكواماً، فذكروا أنها تنبت مرة أخرى بعد قطعها بسبب خصوبة الأرض وكثرة الأمطار.

ثم حدثونا عن الإخوة الأباظة أنهم جاؤوا مهجرين، وليسو مهاجرين، بمعنى أنهم أكرهوا على الحضور إلى هذه المنطقة من بلادهم (أبخازيا) التي تؤلف إقليماً ذا حكم ذاتي داخل جمهورية جورجيا، ويقاتل أهله الآن من أجل الاستقلال عن جورجيا.

وأن عددهم في البلدة يبلغ ألفاً وسبعمائة أسرة، ولهم لغتهم الخاصة التي هي اللغة الأبخازية.

ثم انتقلنا لرؤية المسجد الذي هو متوسط الحجم مبني بالآجر الأبيض، يدخل إليه من مدخل منفصل كالمقدمة، ولكنها مسقوفة.

وداخل المسجد مفروش بفراش لا بأس به وله ستائر على نوافذه صفر تجعله يبدو إذا أسدلت كأنه منزل من المنازل.

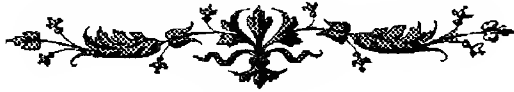


المؤلف على كراسي العاجزين في مؤخرة مسجد قرية يسيج

ومما يسترعي الانتباه فيه صفان في مؤخرته من الكراسي قد صفت لكي يصلي عليها من لا يستطيعون السجود من كبار السن.

وهذه عادة أيضاً رأيناها شائعة في هذه البلاد الشمالية الباردة من الاتحاد السوفييتي حيث تكثر أمراض الرجلين، وبخاصة أمراض الركب، وإن كان بعض الإخوة يقولون: إن الناس متساهلون في ذلك، فيترخص منهم من يستطيعون مع شيء من المعاناة بعدم السجود من كبار المسنين. قالوا: ونحن الآن نعمل على توعيتهم في هذا الأمر.

وقد صلى الإخوة المرافقون صلاة العصر فيه، أما نحن فإننا كنا قد جمعنا العصر مع الظهر وصليناها قبل ذلك.



ورأيت في مدخل المسجد (سطلاً) من الخزف في جانبه مغراف له يد من الخشب، رأيتهم يغرفون منه فيشربون، وكذلك يأخذون الماء للوضوء.

إلى أرض المسجد الجديد:

هذا المسجد صغير كما قلت، وهو أيضاً قديم، ولذلك حصلوا على أرض واسعة في منطقة خالية قريبة من المسجد انتقلنا إليها بالسيارات، فوجدناها جزءاً من أرض واسعة خضراء، كثيفة الاخضرار، خالية من الأبنية، ذكروا أنها كانت مخصصة في الأصل لتكون مطاراً للمدينة، بمعنى أنه سيبنى عليها مطار للمدينة التي لا مطار فيها عدلوا عنها، فقسموها لمساكن الناس، وخصصوا هذه المنطقة للمسجد، ومساحتها ٥٠ متراً في ١٠٠ متر مربع. وذلك بعد أن قطعوا منها الأشجار الكبيرة. واللافت للنظر هو كثافة الأعشاب فيها، حتى إنها أكثر كثافة من الحقول المزروعة. وقد رأينا فيها بقرتين ترعيان إلا أن إحداهما قد ربضت على الأرض لكونها شبعت في مكانها من كثرة العشب والتفافه، وقد ازدهرت أعشابها حتى صارت تسر الناظرين، وإن كانت أحوال المعيشة الأخرى تمنع أهل هذه البلاد من السرور بها وأمثالها، أو ربما كان يمنعهم من الشعور بذلك كونهم قد اعتادوا على ذلك في كل عام.

وتقع على شارع مهم يسمى (إستفرابول)؛ لأنه ذاهب إلى منطقة إستفرابول التي لا تبعد عنها كثيراً بل هي مجاورة لها .



تذكارية لوفد الرابطة على أرض الجامع الجديد في يسيج قرتشاي شركس مع أهالي القرية

التقطنا صورة تذكارية للقوم في هذه الأرض التي يؤملون أن يبنى عليها المسجد، وسألتهم عما جمعوه من النقود لهذه المهمة، فذكروا أنهم جمعوا (٧٠) ألف روبل، وهذا يساوي ٦٧دولاراً أمريكياً، وهو مبلغ ضئيل إلا أن جهدهم لم يصل إلى أكثر من ذلك، وما يمكن لهم أن يبدؤوا بناء المسجد بمثل هذه المبالغ الضئيلة، فأخبرتهم بأن رابطة العالم الإسلامي تساعد المشروعات التي يبدأ بها أصحابها، ولا تستطيع أن تقوم بها عنهم كلها. ولذلك نرى أن نقدم لهم شيئاً عاجلاً يمكنهم أن يسوروا به الأرض محافظة عليها من الضياع بسور ثابت



يبقى بعد أن يبنى المسجد.

وقد سألته عن المبلغ الذي يكفي لتسوير أرض المسجد كلها، فأخبرونا، فقدمنا لهم تبرعاً حاضراً وهو يساوي ضعف ما جمعوه الآن عدة مرات.

منطقة شركسية:

غادرنا هذه البلدة الأبخازية بعد أن ودعنا الإخوة الكرام من أهل (الإباظة)، وانتقلنا إلى منطقة أخرى لقوم آخرين من إخواننا المسلمين في هذه الجمهورية التي يتألف سكانها من أكثرية (قرتشائية)، تعتبر من الأقوام التركية ربما كان ذلك لكونهم يتكلمون لغة تركية ومن أقلية شركسية تتكلم اللغة الشركسية المعروفة في منطقة جبال القوقاز، وهي لغة خاصة صعبة قائمة بذاتها، ليست لها علاقة باللغة التركية، وإنما هي أصيلة في هذه البلاد.

وتسمى المنطقة التي سنذهب إليها (إديغا حبل)، والإديغا أو الإديغية هم الشركس اسم قديم لهم، وحَبْل بلدة أو محل، وقد رأينا عدة قرى وأماكن في جمهورية الإديغي التي كنا فيها قبل الوصول إلى هذه الجمهورية فيها كلمة (حَبْل) هذه، وتقع هذه المنطقة إلى الشمال من مدينة (شركسك).

تركنا الشارع العام إلى شارع آخر يسلك جهة اليسار مع طريق إزفلتي لا بأس به، رأينا على اليسار منه حقلاً واسعاً من أشجار التفاح، ربما ذلك لكونه مملوكاً للحكومة أو لجمعية تعاونية.

مدينة أديغا حَبْل :



الشارع الرئيسي في بلدة أديغا حبل

وهي عاصمة هذه المنطقة التي يسترعي الانتباه فيها أن البياض يغلب على بيوتها ، وأن مكان الأرصفة من شوارعها مزروع بأشجار من الفاكهة وغيرها ، مثلما يفعل أهل فرغانة وخوارزم، وقصدنا المسجد رأساً ، فوجدناه يقع في الطابق الأعلى من مبنى يتألف من طابقين. ذكروا أنه مبنى حكومي منحت الحكومة هذا الطابق الثاني منه للمسلمين، أما الطابق الأرضي فإن فيه سكاناً آخرين.



مسجد أديغا حبل في قرتشاي شركس

ولما سألتهم عما إذا كان بإمكانهم أن يستملكوا الطابق الأرضي أيضاً للمسجد، ليكون المبنى كله الذي هو ليس واسعاً ولا كبيراً، وإنما هو مبنى معتاد، أجابوا بأن ذلك ممكن إذا تيسر وجود من يدفع لهؤلاء السكان تعويضاً مالياً يتمكنون به من إيجاد مسكن بديل لهم. فقلت لهم: إن الدولة هي أسكنتهم، وهي تستطيع أن تخرجهم وتعوضهم مسكناً آخر، فقالوا: إنها أضعف من ذلك؛ لأنها لا تجد المساكن الكافية للمواطنين، وليست لديها قدرة على بناء مساكن جديدة.

فقلت لهم: إن الأولى أن تبدؤوا أنتم بجمع المال، ونحن



سنساعدكم، وتدفعوا لهم تعويضاً مقابل خروجهم، ثم تستملكون هذا الطابق للمسجد. فذكروا أن هذا يكاد يكون مستحيلاً الآن في ظل هذا الفقر والعوز والنقص في الدخول الذي تتخبط فيه البلاد.

لا شك أن قولهم صحيح، ولكن المسألة تحتاج إلى عزيمة وملاحظة، وإلا فإننا في الرابطة نستطيع أن ندفع التعويض المطلوب؛ لكن يجب أن توجد هنا جهة معترف بها رسمياً مؤهلة لمثل هذه الأمور بحيث تستطيع قبض المال، وإجراء التملك، والنفقة على المسجد، وهذا فيه صعوبة كبيرة فحتى الإدارة الدينية لم يمض على تأسيسها إلا وقت قصير، ولم تستكمل صفتها الإدارية التي تؤهلها لمثل هذه الأعمال بعد.

وجدنا في المسجد إمامه الأخ (بيسبتا كاراديف)، وهو كبير السن، ضعيف السمع، ومع ذلك كان الكلام معه باللغة الروسية؛ لأنه لا يحسن لغة القراتشاي التي هي لغة أكثرية السكان في الجمهورية، كما أن لغته الأصلية هي الشركسية لكونه من إخواننا الشركس لا يعرفها أحد ممن هم معنا، ومنهم الأخ عبد العزيز شعيب الأخ السوري من أصل شركسي، فهو لا يعرف اللغة الشركسية لغة أهله قبل الهجرة إلى سوريا، وإنما كان يتكلم مع هذا الأخ نائب رئيس الإدارة الدينية ويسمونه (نائب المفتي) لأن رئيس الإدارة الدينية يسمونه المفتي في هذه البلاد التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفييتي، ومازالت جزءاً من جمهورية روسيا الاتحادية.

ولاحظنا أن اسم الأخ ليس اسماً إسلامياً مألوفاً عندنا مثل أكثر الأسماء التي يتسمى بها المسلمون ذوو الأصول الشركسية، لاحظنا ذلك في جمهورية الإديغي التي قدمنا منها، وذكرت ذلك في كتاب:

«بلاد الشركس الإديغي».



المؤلف في مسجد أديغا حبل مع إمام المسجد

وحتى مظهر الإمام لم يكن مظهراً يدل على أنه إمام؛ إذ كان يضع على رأسه قبعة، ولكنه خلعها عندما أردنا التقاط صورة معه، وأخبرنا أنه يخلعها إذا أراد الصلاة، ويضع على رأسه قلنسوة أو عمامة. إلا أننا رأيناه في المسجد عندما وصلنا إليه على رأسه القبعة.

عقدنا جلسة مع الإمام واثنين من الإخوة المسلمين؛ لأن الوقت ليس وقت صلاة، ولم يعرفوا بموعد حضورنا فيما يظهر. وذلك في المصلى من المسجد، وهو غرفة مستطيلة واسعة ليس فيها محراب، وإنما رمزوا لمكانه بسجادة علقوها فيه.



والمسجد مفروش بالبسط فوقها جلود الضأن التي عليها صوفها، وذلك لكونها تقي برودة الأرض في الشتاء البارد في هذه البلاد.

ومع بعد هذه المنطقة عن البلدان العربية، ولكونها خارج عاصمتها، وعدم وجود من يتكلم العربية من أهلها فإن معظم اللوحات في المسجد هي باللغة العربية، ومنها لوحة (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم).

اللوحة الفريدة:

وكونها فريدة راجع إلى كوني لم أرها في مسجد آخر غير هذا المسجد النائي، واللوحة بالعربية عنوانها (مع الحبيب المصطفى، من الصباح إلى المساء) وتقول:

إذا أفاق من نومه قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

إذا قام من فراشه قال: رب اغفر وارحم واهد للسبيل الأقوم.

وهكذا حتى النوم، بعض هذه الأدعية والأذكار صحيح، وبعضها ليس بصحيح على شروط أهل الحديث.

كما وجدنا في المسجد رسماً ينوون أن ينفذوه إذا تمكنوا من ذلك، وقد عدلوا مدخل هذا البيت، وبنوا له منارة حتى يصبح مظهره مطابقاً لمظهر المسجد، التقطنا صورة للإمام وبعض الحاضرين إلى جانب هذا الرسم. كما التقطت صورة للمسجد الذي رأيت في فنائه شجرة جوز ضخمة محملة بالثمار، وهو الجوز المسمى بالقعقع أو (عين

الجمل).

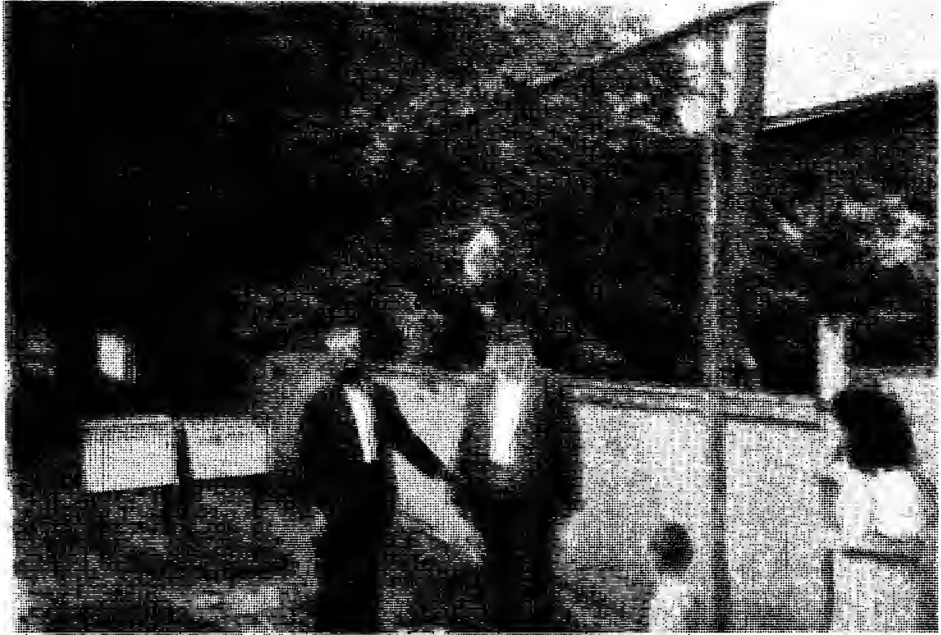


اللافتة العربية المعلقة في مسجد أديغاحبل في قرتشاي شركس

المسلمون في أديغا حبل:

رغم كونها شركسية في الأصل، فإن الإخوة الشراكسة لا يمثلون إلا نصف سكانها، ولكنه النصف الأكثر، بمعنى أنهم أكبر الطوائف فيها.

فقد حدثونا في المسجد أن المسلمين في المدينة يؤلفون ثمانية آلاف أسرة مسلمة؛ نصفهم من الشركس، والنصف الآخر من قوميات أخرى من قوميات المسلمين، وفي المدينة إلى جانبهم أربعمائة أسرة من غير المسلمين؛ أكثرهم من الروس، وبقيتهم من إخوانهم النصارى السلافيين كالأوكرانيين والروس البيض.



قرب مسجد أديغاحبل مع رئيس جمعية المسجد

ذهبنا من المسجد نبحث عن رئيس جمعية المسجد، فوقفنا عند بيته، واسمه (علي شبب زوغوت)، وهو شركسي يعمل محاسباً في إحدى الإدارات الحكومية، ويقع بيته على شارع كسامول من المدينة. وتعني (كسامول) الشبيبة الشيوعية .

ومما استرعى انتباهي أنه توجد قناة في جانبي الشارع تصب فيها المياه المستعملة الخارجة من البيوت على طريقة بعض البلدان المطيرة، وبخاصة في البلدان الاستوائية حيث تجري هذه المياه المستعملة إلى منطقة منخفضة، ويعتمد تنظيفها على مياه الأمطار التي تجرف ما فيها، غير أن هذه البلاد ليست كالبلدان الاستوائية في حالة الجو، وإنما هي باردة يمكن أن يكافح البرد فيها ما قد يتولد فيها من حشرات، ويتجمد فيها الماء في الشتاء.

وفي بيت الأخ رئيس الجمعية أشجار من أشجار الفاكهة المثمرة؛ بل التي أثقلتها ثمارها، قطفوا لنا منها تفاحاً وخوخاً؛ لكنه لم ينضج تماماً.



المؤلف في رصيف الشارع العام المزهر في أديغا حبل

وقد حاول الأخ على أن يجعلنا ندخل إلى بيته، ولكننا لم نفعل لضيق الوقت. ومن اللطيف السار أن أبناً له أظنه في السادسة من عمره قرأ علينا سورة الإخلاص قراءة جيدة، وهو مثال على عدد من أطفال المسلمين الذين جعل أهلوهم يلقنونهم مبادئ الدين الإسلامي وتلاوة القرآن الكريم، الأمر الذي كانوا حرموا منه من قبل في ظل الحكومة الشيوعية الملحدة .

بلدة القوم الكبار:

ودعنا أهل بلدة (أديغا حبل)، وانطلقنا إلى قرية أخرى، ولكنها لقومية أخرى من الإخوة المسلمين في هذه البلاد، وقد حرص الروس على إظهار الفوارق القومية بين المسلمين وغيرهم، وذلك من أجل إظهار الفوارق بينهم، حتى يكون ذلك مدعاة لعدم شعورهم بالأخوة الإسلامية.

وتدعى البلدة (إيكون خلق)، ومعناها: القوم الكبار، فإيكون: كبير، وخلق: قوم، وذلك بلغة هؤلاء (نوغاي) الذين يتكلمون فرعاً من اللغة التركية، ويزعم بعضهم أنهم من التتار الذين هم بقايا دولة (التون اورده) المسلمة الكبيرة .

استقبلنا متولي المسجد الأخ (أبو شيخ علي) في المسجد الذي أقيمت جدرانه، وتم إعداد سقفه للصب، وذكر لنا الأخ (أبو شيخ علي) متولي المسجد بمعنى رئيس الجمعية المشرفة عليه بأنهم سيقيمون مدرسة إسلامية بجوار المسجد لتعليم أولاد المسلمين أمور دينهم. وذكر أشياء مؤثرة في معرض حديثه عن إقامة المسجد بأنه جمع المال له من الكبار والرؤساء من مسلمي البلدة، وبعضهم أحضر مواد البناء

بأعيانها ونوه بأنهم لم يتسلموا أية مساعدات خارجية لإقامة المسجد.



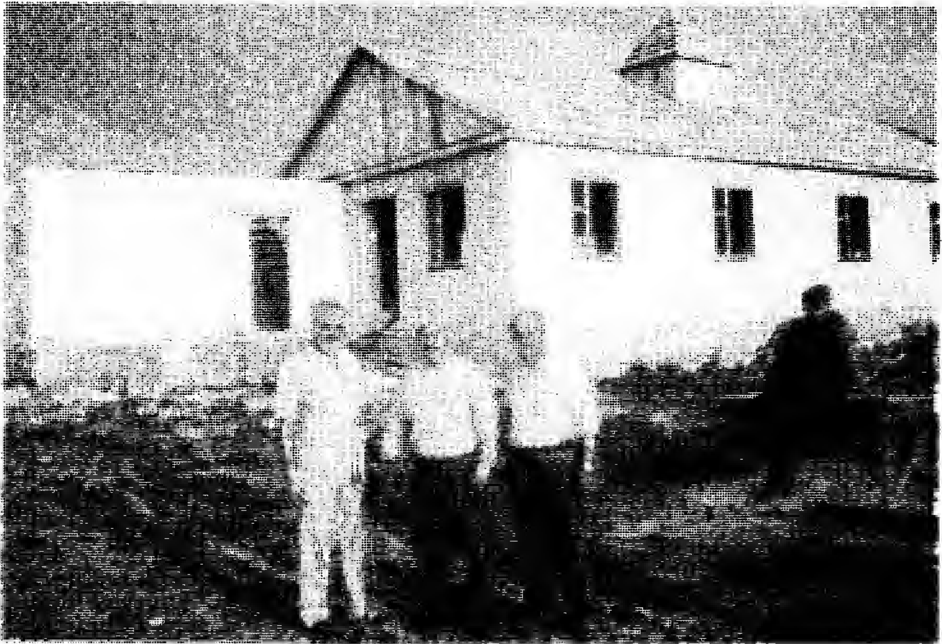
المؤلف مع الأخ أبو شيخ علي عند بيت الإمام قرب المسجد في قرية إيكون خلق

وهو مبني بلبن الآجر الأبيض إلا الأعمدة والسقف فهي من الإسمنت المسلح كما هو ظاهر، وليست له منارة، ويتمنون أن يجدوا من يساعدهم لبنائها. كما أننا رأيناهم قد سقفوا مبنى المدرسة، ومحلات الوضوء، وكل ذلك بسقف مسنم حتى تنزلق عنه مياه الأمطار، ولكن السقف من الصفيح الذي ذكروا أنه مقاوم للصدأ

كما أقاموا بيتاً لإمام المسجد، ومطعماً للطلاب، كل ذلك بنوه بجمع القليل القليل من التبرعات فيما بينهم مع قلة ذات اليد وضعف الدخل عندهم.

ويقع المسجد ضمن أرض خضراء معشبة مزهرة بزهور برية غير معروفة لنا، رأينا فيها بعض الأغنام ترعى.

وقد ذكر لنا أن هذا المسجد الكبير يحتاج إلى مساعدة، فقلنا لهم: إن هذا صحيح؛ لأن المسجد كبير بالفعل بالنسبة إلى مساحات المساجد في هذه البلاد.



مسجد إيكون خلق والإمام الحاج أبو شيخ علي

والأخ (أبو شيخ علي) يفهم العربية إذا تكلمنا معه كما قال،

ولكنه لا يستطيع الكلام بها مع أن عمره (٧٣) سنة، وذكر أنه كان قد تعلم العربية وهو صغير في هذه البلاد قبل أن يحرم النظام الشيوعي تعلم الدين في البلاد.

والأخ (أبو شيخ) يعرج وذكر أن ذلك بسبب كسر حصل له في رجله.

المسلمون في البلدة:

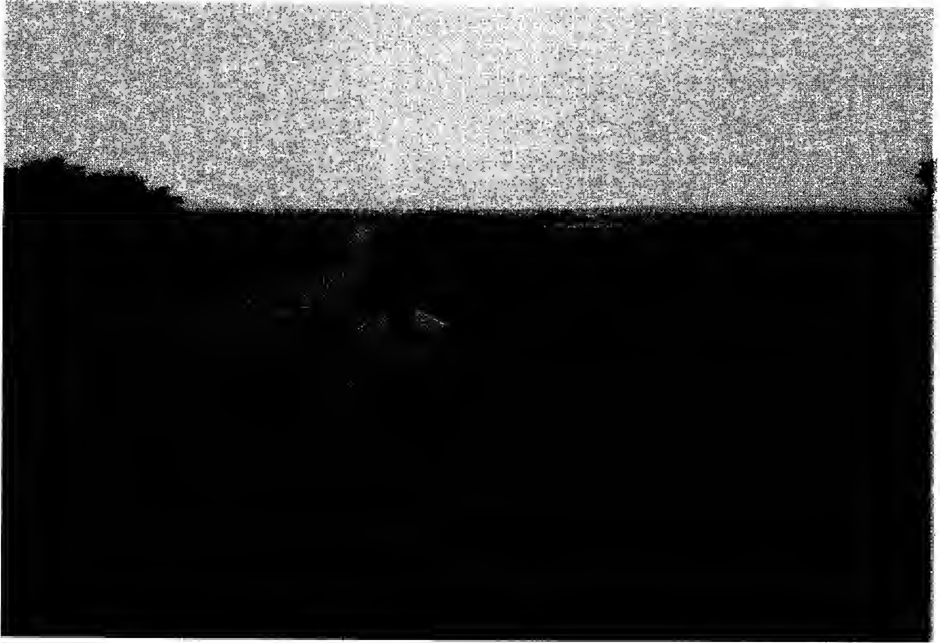
ذكروا أن المسلمين يؤلفون أغلبية سكان بلدة (ايكون خاق) لأنهم فيها ١٢٠٠ أسرة، أغلبهم من قومية (نوغاي) هذه، وليس معهم فيها من غير المسلمين إلا ٥ أسر أو ٦ أسر من الروس، والبلدة ريفية .



داخل مسجد قرية إيكون خلق (لم يكتمل)

وأهم ما يسترعي الانتباه في البلدة هو قلة العناية بنظافة الشوارع البادية فيها، وبط كبير يتبختر في شوارعها بأعداد كثيرة. وربما كانت سبب كثرته فيها كثرة المياه في البلدة.

قرية الماء الجميل:



صورة للمؤلف في ريف شركسك

خرجنا من الشارع العام لبلدة (القوم الكبار) فوقعنا مباشرة في ريف أخضر نضر أهم ما فيه حقول مزروعة لتكون علفاً للحيوان، وهذا عجيب أن يتكلفوا زراعة العلف مع وجود هذه الأعشاب الطبيعية الملتفة التي يمكنهم أن يقطعوها ويطعموها الماشية، ويمكنهم أن

يدخروها لفصل الشتاء حيث لا يبقى علف في الأرض، ولكنهم أيضاً لا يتعبون في سقي علف الحيوان الذي يزرعونه؛ لأنه يشرب من ماء المطر الذي ينزل عليهم بغزارة في فصل الصيف في المعتاد.

هذا وقد بلغت الساعة الثامنة عصراً، وما زالت الشمس حية، ونحن نبتعد عن مدينة (شركسك) لزيارة عدة قرى شركسية في منطقة تسمى (تاوشبدا)، ذكروا أن معناها الماء الجميل باللغة الشركسية، وهي خمس قرى لإخواننا الشراكسة الذين لا يزالون يمثلون الأغلبية من سكانها، وإن كان يساكنهم فيها غيرهم. وقد رأيت قطيعاً من الأبقار ترعاه راعية جميلة عليها لباس الباريسيات، وهي منطقة ريفية خصبة يخترقها نهر (زيلين تشوك).



راعية البقر مع بقرها في تاوشبدا

مسجد قوش حبل:

مررنا بقرية من القرى اسمها (مالا والن تشوك)، وهي قرية كبيرة، ولكن ليس فيها مسجد، وسكانها خليط من المسلمين وغيرهم، والمسلمون هم من الشركس والأباظة، وأما غير المسلمين فهم من الروس.

ومن أهم المناظر فيها نساء جميلات شقر الألوان على رؤوسهن المناديل، وشبان يشيرون بالركوب للسيارات المارة عسى أن تستجيب لطلبهم فتركبهم، وأغنام بيض من الضأن ليست لها إليات، وإنما تبدو أذنابها على البعد شبيهة بأذناب الماعز، ولونها أبيض، ولكونه غير ناصع البياض بل يبدو كأنما هو وسخ يحتاج إلى غسل حتى يصبح بياضه نقياً لطبيعة في لونها، وليس لوساخة فيه .



مسجد قوش حبل لم يكتمل

وقفنا عند مسجد (قوش حبل)، وهي إحدى القرى الشركسية هذه، ويقع المسجد على شارع كلمي كوخا، تقع إلى الغرب منه تلة جبلية خضراء.

والمسجد لم يكتمل بعد، وقد بني بالآجر الأبيض، وأساساته من الخرسانة المسلحة الضخمة، وهو واقف عند التسقيف لم يسقف بعد.

ومن أعجب ما رأيته في المسجد منارته؛ إذ أقاموها كلها من الحديد، فصارت شبيهة بالوعاء الحديدي الضخم (البرميل)؛ لأنهم لم يركبوا عليها قبتها بعد؛ إذ لا تزال بجانبها على الأرض، وهي -أي القبة- واقفة أشبه ما تكون بهيئة الطربوش.

ويعني اسم القرية (قوش حبل) قرية المهاجرين بالشركسية، لأن قوش أو كوش تعني مهاجرين، وحبل: قرية أو حي، وسميت القرية بذلك لأن أهلها عندما نزلوها كانوا قد جاؤوا من مكان آخر، ومعظم سكان القرية من الشركس، وفيهم قليل من النوغاي والأباظة، ويبلغ عددهم ٨٠ أسرة، وليس بينهم من غير المسلمين أحد إلا أسرة روسية واحدة.

وتبعد ٣٩كيلوا متراً من مدينة (شركسك) عاصمة جمهورية قرتشاي شركس.

وتجمهر حولنا ونحن واقفون عند المسجد ننتظر إمام المسجد أو رئيس الجمعية الذي يسمونه المتولي وغيرهما، لكي نتعرف عليهم ونخبرهم بأننا سنقدم لهم مبلغاً من المال إسهاماً من رابطة العالم الإسلامي في إتمام بناء مسجدهم، ومن أجل أن نشكرهم على ما بذلوه من جهد في ذلك.



مسلمة مع أطفالها في قرية قوش حبل

وتأملت أطفال القرية فإذا بهم من النضارة في المنزلة التي قيل فيها إن الشركس والكرج الذي يقال لهم اليوم الجرجيون، وهم سكان جمهورية جورجيا ، هم من أجمل شعوب الأرض .

ومن الغريب أن هؤلاء الأطفال وهم يعيشون في جو ريفي مما قد يؤثر على نضارة الجسم لم يؤثر عليهم ذلك، فهم كسكان المدن في هذا الأمر.

وقد خصصنا للمسجد بعض المال.



التلة الخضراء الخصبة تشرف على قرية قوش حبل

العودة إلى شركسك :

بدأنا العودة إلى (شركسك) عاصمة الجمهورية في التاسعة إلا ثلث، وقد بقي على غروب الشمس ثلث ساعة على وجه التقريب، فاخترقنا شارع القرية العام، فلاحظنا كثرة الأبقار فيه التي كانت عائدة من الرعي في ضاحية القرية، كما كان هناك غنم من غنمهم التي تشبه الأغنام الأسترالية لولا أنها أصغر قليلاً منها في الحجم.

ولما أبديت لهم عجبي من خصوبة الأرض، وكثرة المواشي في هذه الجمهورية قالوا: إن هذا صحيح، ولذلك يفتخر أهلها بأن فيها أمناً غذائياً، وليست مثل موسكو التي تشح فيها المواد الغذائية؛ فضلاً عن



الفاكهة والخضروات، إلا إذا استوردت من أماكن بعيدة عنها .

ولاحظت أن حيطان أفنية البيوت، وهي أحواشها التي تحيط بها، هي من الآجر الأبيض المنقوش مثلما عليه الحال في قرى جمهورية الإديغي الذاتية الحكم المجاورة لهذه الجمهورية .

ومررنا فوق جسر على نهر (زيلين تشوك)، وهو واسع المجرى إلا أنه ليس عميق المياه، ومن الأشياء الغريبة في الطريق أننا رأينا منشأة على يمينه أشار مرافقونا إليها قائلين: إنها محطة لإطلاق الصواريخ على السحب السوداء من أجل أن لا ينزل منها بَرَد كبار يضر بالناس والمزروعات، وقال آخرون: وحتى لا تنشأ فيها صواعق تصيب الأرض. يقولون: إن هذه الصواريخ إذا أصابت السحب، فإنها تتخلخل وينزل ما فيها من المطر، ولا أدري صحة ذلك.

وقد حاولت أن أستفيد من معلومات الإخوة المرافقين عن أحوال الإخوة المسلمين في جمهورية (قبرداي بلغار) التي سوف نسافر إليها بعد انتهاء زيارتنا لهذه الجمهورية، فوجدت أنهم لا يعرفون شيئاً عن أحوالها الأخرى، حتى جيرانهم المسلمين الذين جئنا منهم إلى هذه الجمهورية لا يعرفون عنهم شيئاً، وكانوا يصغون إلى ما أقصه عليهم من أمرهم بشغف وتشوق إلى الأخبار عنهم.

وهذا عجب من السياسة الشيوعية التي كانت قائمة على عدم تشجيع الانتقال والاختلاط بين أجزاء البلاد؛ سواء أكان ذلك بصفة إيجابية أو بصفة سلبية عن طريق عجز المواطنين عن الحصول على أثمان التذاكر وأجرة الفنادق في الأماكن التي تقع خارج بلدانهم .



دار الضيافة:

وصلنا ضواحي (شركسك) بسرعة، وقطعنا جسراً فوق النهر الذي في تلك الضواحي، وهو نهر (كوبان)، وهذا اسم روسي لهذا النهر معناه: عظيم.

وتوجه بنا الاخوة: المفتي ونائبه إلى دار الضيافة، وكنت طلبت منهم أن نذهب إلى الفندق، فذكروا أنهم حجزوا لنا غرفاً في دار الضيافة الحكومية، وأنها أليق بنا من الفندق، وكنا واعدنا بعض أهل المساجد التي مررنا بها هذا اليوم أن يحضروا إلينا بعد المغرب من أجل أن ندفع لهم المساعدات المالية التي قررناها، وذلك بحضور المفتي ونائبه، وبعض كبار المسلمين، وحتى تكون الأوراق والأختام جاهزة، فوجدنا عدداً منهم قد سبقونا إلى الحضور عند باب دار الضيافة بسياراتهم، وهي سيارات لغيرهم، ولكنها معهم، فأسرع الإخوة المرافقون والمنتظرون ينزلون أمتعتنا من الحافلة التي كنا استأجرناها صباح هذا اليوم المبكر من مدينة (ميكوب) عاصمة جمهورية الإديغي إلى هذه المدينة وأبقيناها معنا.

حمل الإخوة أمتعتنا الثقيلة الكثيرة إلى حيث حجزت لنا الغرف في الطابق الثالث من دار الضيافة التي ليس بها مصعد، ودخلنا نتحسس الجدران في الظلام ونحن نصعد الدرج إلى الطابق الثالث، وكنا نظن مثلما كان إخواننا المرافقون يظنون أن هذا الإظلام خاص بالدرج، فلما وصلنا إلى الطابق الثالث وجدنا فيه امرأة تتكلم معهم بالروسية، فقالوا لنا وهم يهزون رؤوسهم علامة الأسف: إن المديرة تقول: إن الكهرباء منقطعة عن دار الضيافة، فهل تستطيعون البقاء

هذه الليلة بدون الكهرباء، وكان الظلام قد استحكم، فامتنعنا عن ذلك وقلنا: إننا أحضرنا هؤلاء الإخوة لكي نعطيهم نقوداً ونكتب ذلك، كما أننا لا نثق على ما معنا في الظلام إضافة إلى الأعمال الأخرى التي منها الصلاة. وقلنا لهم: ألم يكن الأولى بالمديرة أو الموظفة هذه أن تخبرنا بأن الكهرباء مقطوعة عن دار الضيافة قبل أن نصعد بأمتعتنا إلى الطابق الثالث؟

إلى فندق شركسك:

نزلنا مرة أخرى في الظلام نتلمس الجدران والإخوة - جزاهم الله خيراً - يحملون الحقائب والأمتعة، وينزلون بها من الدرج حتى وضعوها في سياراتهم لأن سائق الحافلة التي معنا ذهب بعد أن أنهى عمله الذي كنا اتفقنا معه عليه.

ونفعنا الله بوجود هؤلاء الإخوة أرباب السيارات؛ لأن سياراتهم عديدة، وإن تكن صغيرة أغلبها من طراز (لادا) الروسي.

وقالوا لنا ونحن ذاهبون إلى الفندق: إنه أحسن فندق في المدينة، وقال آخرون: إنه الفندق الوحيد الذي ينزل فيه الأجانب، فخشينا أن لا نجد فيه غرفاً لنا ونحن أربعة، كما خشينا من أن يستغل أهل الفندق حاجتنا ونحن نريد أربع غرف، فيرفعوا الأجرة.

غير أنه تبين أن ذلك كله لم يكن في محله، فالغرفة رخيصة بشكل لا يصدق، وبخاصة أن دار الإفتاء ذكرت لهم أننا ضيوف لها. فنزلنا في أجنحة، كل واحد في جناح مؤلف من غرفة نوم وغرفة جلوس قبلها، فيها كراس ومكتب، وفي الغرفة ثلاجة كبيرة رثة صعبة

الفتح والإغلاق، وجهاز ضخم للتلفزة، وسجادة صغيرة في كل غرفة من غرفتي الجناح، وكل ذلك بستة دولارات أمريكية فقط لليلة الواحدة في الجناح الواحد.

أما الفندق، فإنه كبير مؤلف من طوابق عديدة، وتقع غرفنا في الطابق الخامس منه، وقد صعدنا إليها مع مصعد من مصعدين ضيقين فيه.

والغريب في الأمر أن غرفة النوم فيها سريران لا يزال عليهما أغطية الشتاء الثقيلة مع أننا نشعر بالحر الآن، وخشينا أن لا نستطيع النوم داخل الغرف من الحر الذي لم يُعِدّوا شيئاً لمكافحته من المراوح ونحوها؛ مع أننا لا نستطيع فتح النافذة حسبما حذرونا، لأن الحشرات الصغيرة اللاسعة كالبعوض تدخل منها.

ومن الطريف أنني عندما جلست في غرفتي سمعت في أذني طنين بعوضة كان قد بعد عهدي بمثله، وشيء آخر، وهو أن لكل جناح حماماً داخلياً، لأن الفندق بني ليكون فندقاً، ولكن أكثر ما في الحمام قد فسد، ولم يصلح إصلاحاً يعود به إلى ما كان عليه، وإنما أصلحوه بشيء مؤقت، فصار كل شيء فيه لا يخلو من عيب، ومع ذلك أخبرونا أن الماء سيقطع عن الفندق في الساعة الحادية عشرة ليلاً، فطلبنا منهم أن يحضروا أوعية نحفظ فيها الماء، فأجابوا إنها غير موجودة.

ويلاحظ هنا أنه يوجد نهران في المدينة: أحدهما في داخلها، والآخر في ضاحية من ضواحيها، ومع ذلك ينقطع فيها الماء.

وسلة المهملات في هذا الجناح هي برميل صغير متحطم قذر المنظر



خشن الملمس.

وكان أول ما فعلنا بعد صلاة المغرب والعشاء جمعاً أن صرنا ندفع للإخوة أهل المساجد المبالغ المالية التي قررناها لمساجدهم، وكنا طلبنا منهم أن يأتي من جماعة كل مسجد ثلاثة على الأقل يكون منهم رئيس جمعية المسجد، ويسمونه (المتولي)، ومحاسب الجمعية، وهو (الخازن) عندهم أيضاً، وإمام المسجد، فكنا ندفع لهم ذلك بحضور المفتي ونائبه وبعض القوم.

ثم جاء العشاء إسلامياً تركياً، أو لنقل تركستانياً، وإن لم تكن هذه المنطقة معدودة من بلاد تركستان، وهو حلال بلال قد اجتمعت فيه الجودة مع السخاء، فتناولناه هنيئاً مريئاً، عماده الشواء اللذيذ، والخبز الغليظ ومعه السلطات من الطماطم والخيار، وكانت بنا حاجة ماسة إليه لا سيما بعد مواصلة الجولة من أول الصباح، وقد أحضر لنا الإخوة المفتي ونائبه هذا الطعام .

يوم الثلاثاء : ١٤١٤/١/٢٣هـ

أنحن في بلاد حارة؟

مسنا الحر البارحة في الغرفة، ولم نستطع فتح النافذة خوفاً من تسرب البعوض كما قدمنا، وقد جعلنا ذلك نسأل أنفسنا عما إذا كنا في بلاد (القوقاز) الباردة حقاً أم في بلاد استوائية؟. وسألتهم عن هذا الحر والرطوبة، فذكروا أن ذلك مبشر عندهم بنزول المطر، ولكننا غادرنا هذه البلاد دون أن ينزل مطر. فكأننا الحجاج الصينيون الذين حجوا قبل سنوات، وليست لديهم خبرة؛ بل ليست



لديهم فكرة عن طبيعة بلادنا، فلما اشتد عليهم حر مكة المكرمة قال بعضهم لبعض: سينزل مطر لأن الحر اشتد يقيسون ذلك على ما في بلادهم.

استكمال الجولة:

بعد أن تناولنا طعام الإفطار مبكرين ركبنا حافلة صغيرة كالتي كانت معنا أمس، ولكننا استأجرناها من مدينة شركسك هذه، واشترطنا على أهلها، وهي من مكتب سياحي حكومي، أن تبقى معنا طوال اليوم، وأن تنقلنا إلى مدينة (نالجيك) عاصمة جمهورية قبرداي بلغار في المساء.

وسائقها روسي مثل سائر السائقين الذين استأجرنا سياراتهم لا يعرف غير اللغة الروسية، وليس لديه الرغبة أو الاستعداد للحديث حتى بالإشارة.

وهذه الحافلة فيها ما في أكثر سيارات الأجرة من صغيرات وحافلات، وهي أن زجاجها الأمامي مشطوب بمعنى مشعور، لذلك صعب علي التصوير من داخل السيارة مع وجود هذا الشطب في زجاجتها الأمامية حيث اعتدت على أن ألتقط بعض الصور والسيارة تسير، إلا أنها أحسن من سابقتها، لأن بابها الأمامي تفتح زجاجه وتغلق بخلاف الأولى التي لم يكن بابها الأمامي يفتح إلا من الخارج.

غادرنا مدينة (شركسك) في الساعة التاسعة، ويبعد هدفنا الأقصى هذا اليوم، وهو مدينة نالجيك ١٨٠ كيلومتراً من شركسك؛ غير أننا لن نذهب إليه قصداً، وإنما نذهب يميناً ويساراً نتطلب المساجد



والمؤسسات الإسلامية، وقرى المسلمين التي ليست على الطريق القصد إلى نالجيك.

أول ما لاحظنا قبل أن نفارق ضواحي المدينة منطقة أسموها (سانتوري) ومعناها: منطقة الاستراحة والاستجمام، وهي تكون عادة في أكثر المدن أو لنقل: في أكثر عواصم الجمهوريات الصغيرة في روسيا، وتكون في مكان خلوي منعزل يدار عليها سور محكم لا يدخل منه إلا من بوابة عليها حراس غلاظ.

وتستعمل هذه (السانتوري) لإقامة كبار موظفي الدولة وأعضاء الحزب الشيوعي وضيوفهم بأجرة رمزية رخيصة جداً لأنها مملوكة مثل سائر المشروعات والأبنية المهمة للدولة، وأولئك القوم هم الممثلون الحقيقيون للسلطة والدولة.

وقد رأيت مثيلتها في ضاحية جميلة من مدينة (مايكوب) عاصمة جمهورية الإديغي المجاورة، ولكننا لم نسكن فيها، وقد ترجم الإخوة المرافقون اسمها بالاستراحة الصحية.

كان خروجنا من مدينة (شركسك) مع امتداد شارع لينين من جهة الجنوب، وشارع لينين يكاد يكون أهم شارع في هذه العاصمة، وسوف تزداد أهميته بالنسبة لنا نحن المسلمين عندما يقام أول مسجد يبنى بعد الشيوعية في أرض واقعة عليه.

وتجاوزنا المدينة، فوقعنا في ريف خال فيه أعشاب، ولكنها أقل كثافة ونضارة من أعشاب منطقة (مايكوب) وما حولها من جمهورية الإديغي.

ومررنا يسار الطريق على مصنع للإسمنت، ومحطة لبيع



محروقات السيارات ظاهرة من الطريق، ومحطات بيع الوقود في هذه البلاد قليلة، وقلما تكون ظاهرة على الطرقات، ورأينا عند هذه المحطة بعض رجال الشرطة، ولا أدري الحاجة إليهم فيها.

بلدة أوست جوقوتا:

ومعناها: جوقوتا الجديدة بلغة قرتشاي المتفرعة من اللغة التركية، أو لنقل أنها داخلة في مجموعة اللغات التركية، وإن لم تكن متطابقة مع التركية العثمانية التي يتكلم بها الآن سكان جمهورية تركيا التي عاصمتها (أنقرة).

وذلك لكون المنطقة التي نسير فيها الآن هي منطقة لجماعات (القرتشاي) الذين لا يشاركهم السكن فيها مشاركة أصيلة إلا جماعات من إخوانهم المسلمين الشركس، وإن كان قد أصبح من سكانها الآن أقوام من غير المسلمين من الروس البيض والأوكرانيين والأرمن ومن لف لفهم من هذه الجماعات النصرانية.

والبلدة زراعية غير معتنى بها، لذلك رأينا جوانب الشارع العام فيها الذي هو الطريق الرئيسية العامة يتطاير منها الغبار عندما تمسها عجلات السيارات أو حوافر الدواب.

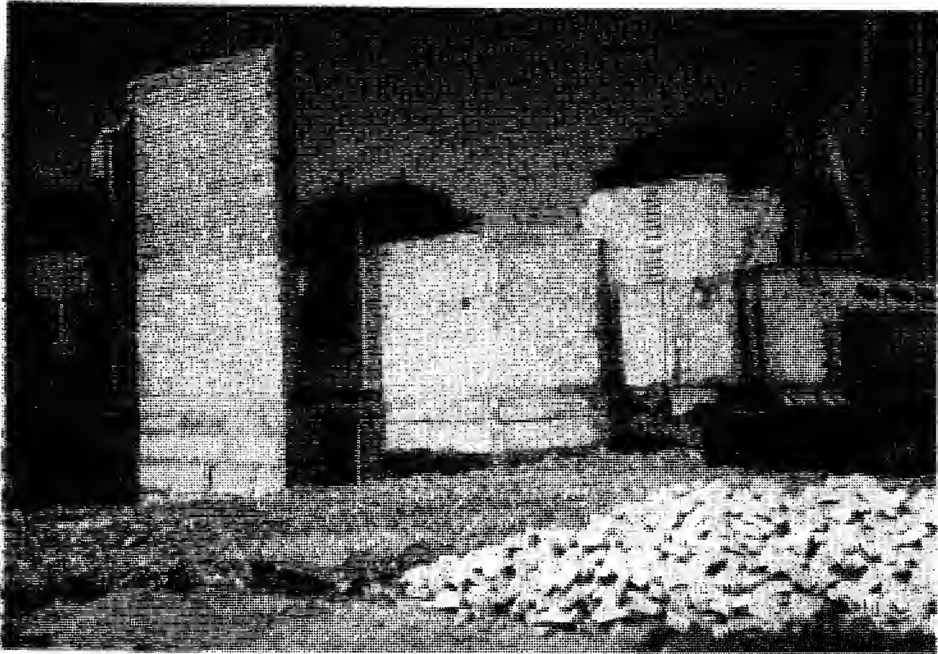
ومن المناظر اللافتة هنا منظر قرويات من أهلها عليهن ملابس القرويات، ولكنهن شقر ذوات شعور ذهبية تشبه شعور المترفات الباريسيات، وليس على وجوههن قشف الريف، ولا خشونة القرى.

وقد كثرت الشاحنات والجرارات الزراعية والحافلات في الطريق بأدخنتها المؤذية، ومع ذلك رأينا عربة يجرها حصان عليها

مسنان من المسلمين على رأس كل واحد منهما قبعة. وقد لبسا ملابس نظيفة ظاهرة النظافة .

جامع أوست جوقوتا :

وقفنا في ناحية من البلدة التي بدت زراعية بحيث صارت منازلها متفرقة ذات طبيعة ريفية ظاهرة عند مسجد فخم لم يكتمل بناؤه، ووجدنا في انتظارنا القائم على بناء المسجد ، وهو أخ كريم من قومية القرتشاي، اسمه (رسلان تنبيه)، ذكر أحد المرافقين أنها هي نبيه التي يسمى بها بالعربية.



جانب من جامع أوست جوقوتا تحت الإنشاء

والأخ (رسلان تنبيه) تاجر بنى ما بنا من المسجد وملحقاته على



نفقته لم يشاركه فيها غيره، جزاه الله خيراً. إلا أن العمل الآن متوقف في المسجد لعدم وجود النفقة، فقد نفد ما عند الأخ رسلان، فتوقف العمل في انتظار فرج يأتي به الله، وقد جاء الفرج اليوم مع إخوته القادمين من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة إذ قدمنا إليها تبرعاً جيداً هو خمسة آلاف دولار أمريكية دفعناها فوراً بحضور مفتي الجمهورية ونائبه والأخ عبد العزيز شعيب السوري وغيرهم، كما كان ذلك أيضاً بحضور بعض أهالي المنطقة ومنهم إمام المسجد الأخ (إسماعيل بوستان)، وهذا مبلغ يعتبر كبيراً في هذه البلاد بسبب قلة النقود وانهيار قيمة العملة المحلية التي هي الروبل الروسي، وقد وقفت به النفقة لأنه بنى المسجد كبيراً مؤلفاً من ثلاث طبقات أسفلها طابق أرضي، أو لنقل نصف أرضي قد خصصوه ليكون مدرسة ودوراً أول فوقه فيه المسجد الجامع، أو لنقل المصلى الرئيسي، وفوقه مصلى احتياطي فيه قسم لصلاة النساء.

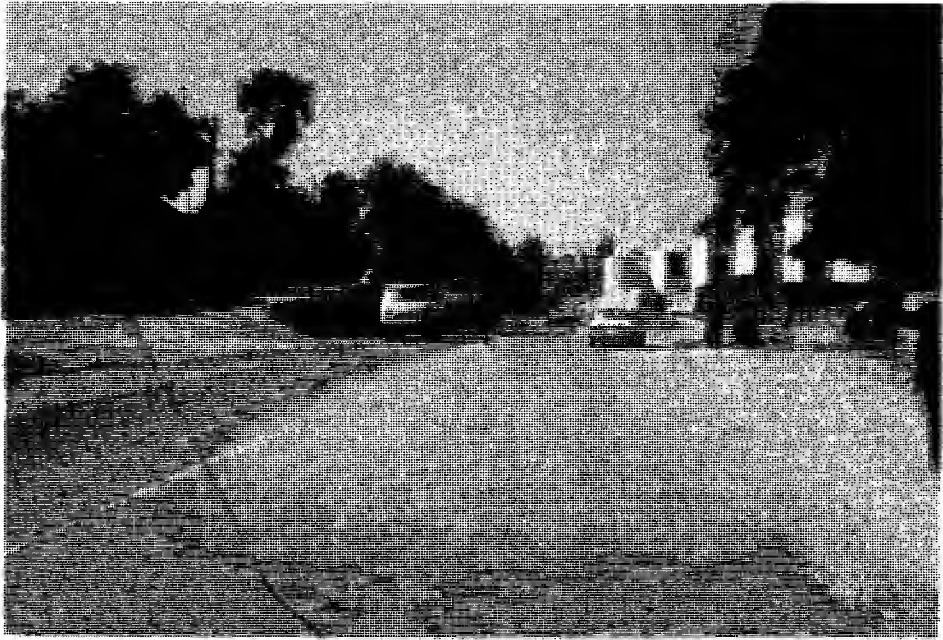
ولاحظنا أنه أول مسجد نرى فيه رافعة من روافع البناء؛ لأن معظم الأبنية كان العمل فيها يتم يدوياً حيث يصعب الحصول على الرافعات إلا في المباني الحكومية التي هي قليلة أيضاً.

وقد رأينا مبنى بجانبه بني ليكون مدرسة قبل البدء بمبنى المسجد إلا أنهم يصلون فيه الآن بصفة مؤقتة.

وذكر لنا الإخوة أن هذا المسجد هو أكبر مسجد في المنطقة؛ بل قال بعضهم: إنه أكبر مسجد في جمهورية (قرتشاي شركس كلها).

وليس ذلك لضخامة بالغة فيه، وإنما لقلة المساجد، وضيق مساحاتها فيها لكون الشيوعيين إبان حكمهم الأول كانوا صادروا

جميع المساجد، ثم منعوا بناء مساجد جديدة، وأخبرنا الإخوة المرافقون أنه كان أكبر المساجد في الجمهورية قبل بناء هذا المسجد مسجد للإخوة الشراكسة، وأما الآن وهذا أكبر منه فصار أكبر مسجد في الجمهورية هو للقرتشاي.



الشارع الذي يقع عليه الجامع في قرية أوست جوقوتا

ومن الطريف أنهم خصصوا فيه غرفة ذكروا أنها للضيوف من المسلمين، وهذا أمر مهم في هذه البلاد الباردة التي لابد فيها للمسافر من أن يبيت في منزل مدفأ محصن ضد البرودة، وليس كالبلدان الحارة التي يمكن للغريب فيها أن ينام في المسجد، أو في حديقة من حدائقها على سبيل المثال. وقد أعجبنا بقوة بناء المسجد الذي هو بالإسمنت المسلح المتقن.

المسلمون في أوست جوقوتا :

التف علينا جماعة من أهل القرية من رجال ونساء أكثرهم من كبار السن، وقد حرصوا على أن يسمعوا كل ما نقوله عندما عرفوا أننا من مكة المكرمة، وحرصنا نحن على أن نسمعهم ما نريد قوله، ومن ذلك ما أخبرناهم به من أننا من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة التي تمثل معظم الشعوب الإسلامية والأقليات المسلمة في مجالسها، وأننا جئنا إلى هذه المنطقة من أجل الاجتماع بالإخوة المسلمين والتعاون على الخير مع العاملين في الدعوة هنا، وعلى رأسهم الإدارة الدينية، وأن من أهم ما نشجع عليه تشييد المساجد، وإقامة المدارس الإسلامية، ولذلك قدمنا هذا المبلغ الرمزي الذي هو خمسة آلاف دولار أمريكي لهذا المسجد مع استعدادنا لإرسال مساعدة أخرى لأهله إذا لم يستطيعوا إكماله بأنفسهم.



تذكارية مع الإخوة المسلمين أهل قرية أوست جوقوتا



وأخبرونا أن معظم سكان البلدة هم من المسلمين، وأن مجموع السكان فيها يبلغ حوالي (٣١) ألفاً، منهم (٢٠) ألف نسمة مسلمون، و١١ ألف نسمة من غيرهم وأكثرهم من الروس.

غادرنا البلدة بعد أن ودعنا أهلها، وبخاصة منهم الأخ النجيب (رسلان تنبيه)، ومررنا بمحطة الحافلات فرأينا فيها جماعات من الناس ينتظرون وصول حافلة ذكروا أنها تأخرت، وهم يشيرون إلينا أن نركبهم على اعتبار أن سيارتنا حافلة صغيرة.

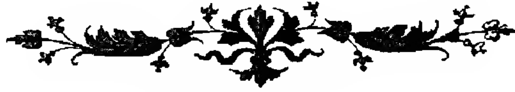
ومررنا بقناة واسعة تشبه أن تكون نهراً صغيراً، وقد سحبوها من نهر كوبان إلى منطقة (إستفرابول) الروسية المجاورة .

وبعد حوالي كيلومترين اثنين مررنا برافد صغير من روافد نهر كوبان، وهو ذاهب ليرفد ذلك النهر الكبير الذي جعلت القناة المسحوبة منه صغيراً في حجم المياه التي بقيت فيه، وإن كان واسع المجرى لأن مجراه كان قد تكوّن قبل سحب القناة منه.

الفواكه أغلى من الشام :

مررنا بأشجار من أشجار الفاكهة، من بينها أشجار المشمش واللوز والخوخ، وقال الأخ السوري عبد العزيز شعيب: إن الفاكهة والخضروات هنا أغلى منها في سوريا رغم الخصب الظاهر في البلاد، ووفرة المياه أكثر منها في سوريا .

وقالوا جميعا: إن ثمن الكيلو من الطماطم يباع هنا بألف روبل، وذلك يعادل دولاراً واحداً ولا يستطيع العامل المعتاد أن يحصل على هذا المبلغ إلا إذا عمل أربع أيام، فذكرت أن العامل المتوسط في بلادنا يأخذ



مائة ريال في اليوم وكيلو الطماطم الواحد بأربعة ريالات في محلات الخضار، فعمله اليومي إذاً يستطيع أن يحصل به ٢٥ كيلوجراماً من الطماطم، على حين أن العامل هنا يحصل بعمله اليومي أي بأجرة عمل اليوم على ربع كيلو من الطماطم فقط؛ مع أن بلادنا بلاد صحراوية، وهذه بلاد مطيرة، و« لله في خلقه شئون ».

وأجمعوا القول بأن أسباب كثرة الفاكهة ورخصها متوفرة، ولكن البركة قليلة، وقلت لهم ما قالته العامة عندنا وهو: (البركة جند)، أي أنها من جند الله الذي لا يرى ولكن تحس آثارها.

ومن أسباب عدم البركة عدم الأخذ بالأسباب الموصلة إليها. ومن ذلك أن أهل هذه البلاد كانوا واقعين تحت الحكم الشيوعي من ٧٣ سنة، ولم يكن يتاح لهم أن يقوموا بالجهود الفردية للحصول على الفواكه والخضروات، وإنما كانت الحكومة ممثلة في المزارع الجماعية، والجمعيات التعاونية تقوم بذلك، لذلك يحتاجون إلى فترة طويلة من الوقت حتى يكتسبوا الخبرة والمهارة في المشروعات الاقتصادية الفردية.

كان الحديث يجري حول الموضوع، ونحن نرى الربى الخضر على مدى البصر تجللها الأعشاب، والأراضي الخصبة في السهول، فيزيد عجبنا من ذلك.

قرية ينكي جوقوتا:

وهي قرية (جوقوتا) القديمة، وهي مثل سابقتها للإخوة القرتشاي إلا أنها أصغر من سابقتها.



جامع ينكي جوقوتا

دخلنا إليها مع شارعها العام الذي هو الطريق الإزفلتي الذي كنا نسير فيه، وهو متكسر الزفت، سيئ الوضع، وأردأ من الطريق العامة قبل أن تصل إليها ، ومع ذلك يتطاير الغبار من شارعها.

ولكن الذي أثار إعجابنا بل اعتزازنا هو جامعها العالي البناء بلونه الأبيض الناصع الذي يمثل الطهر والنقاء، ومنارة ذات قمة من الحديد اللامع المشرق، .وأعلى المسجد بالآجر الأبيض.

وقد التقطت له صورة، ولبيت تقليدي من بيوت القرتشاي سكان المنطقة.

ومما يجدر ذكره أن مفتي الجمهورية الأخ الشيخ إسماعيل علي

براديوف ونائبه الشيخ إسماعيل بوستان كلهم من القرتشاي؛ لأن لهم الأغلبية في هذه الجمهورية التي يساكنهم فيها الإخوة الشراكسة، ولكنهم يؤلفون فيها الأقلية.

وجدنا المسجد مكتمل البناء تقريباً، وداخله واسع جداً يشتمل على طابقين: أحدهما: وهو الأسفل، بنوه ليكون مدرسة إسلامية قسموها إلى غرف على هيئه فصول دراسية جيدة .



إعلانات بقوائم المتبرعين لجامع ينكي جوقوتا

ومما لاحظته في المدرسة أنهم ألصقوا في إحدى غرفها قوائم طويلة بأسماء المتبرعين للمسجد والمدرسة، قالوا: لقد ذكرنا حتى المتبرعين بخمسة روبلات، وهذا مبلغ ضئيل الآن.

وهذا أمر جيد فيه شكر للمتبرعين، وفيه حث على من لم يتبرعوا بعد أن يسارعوا إلى ذلك.

والطابق الثاني فيه المسجد، وقد زينوا محرابه بنقوش من الفن الإسلامي، وبكتابة آيات قرآنية كريمة منها سورة الفاتحة كاملة على يمين المحراب، وعلى يساره أول سورة البقرة.

وفي آخر المسجد شرفة لصلاة النساء.

وقد أخبرونا أن سكان القرية كلهم من المسلمين؛ لذلك سارعوا إلى بناء هذا المسجد الفخم مع أن القرية صغيرة .



تذكارية في محراب جامع ينكي جوقوتا مع المفتي وعبد العزيز شعيب وحسن ازميرلي



وقد ذهبت أتمشى في القرية، فكان الانطباع أنها مهملة، فأزقتها ترابية وهي واقعة في لحف تلة خضراء، لذلك صارت غير مستوية، وفي شارع المسجد الجنوبي نهر صغير يأتي من الجبال، ولسقوط مياهه على أرض فيها شيء من الحصى وقع لطيف يشبه القهقهة الرزينة، خيل إلي أنها للترحيب بالإخوة المسلمين القادمين من مكة المكرمة، أو أنها للفرح بوجود هذا البيت العظيم من بيوت الله في هذه القرية الصغيرة قرية (ينكي جوقوتا).

الروابي الخضر:

غادرنا القرية مسرعين حذراً من أن يضيق بنا الوقت، وكان معنا سيارتان صغيرتان، قد ألفتا مع الحافلة التي استأجرناها موكباً ليس كثير الوجود في هذه البلاد.

فتركنا القرية في العاشرة والنصف، وقلت للمفتي الذي كان معي في السيارة الصغيرة إن هذه الأعشاب التي تكسو الأرض ببسط خضر ثروة عظيمة فهل تنتفعون منها بغير رعي الماشية؛ لأنني أرى الماشية وبخاصة الأغنام ترعى فيها؟

فقال: نعم إننا نحش هذه الأعشاب ونخزنها علفاً للماشية في الشتاء؛ لأن الشتاء عندنا ثالج، وذكر أن السنة تكاد تنقسم عندهم إلى قسمين: أحدهما صيف ماطر غزير المطر يمتد ما بين خمسة أشهر وستة، والثاني شتاء ثالج يكون كذلك خمسة شهور أو ستة حيث تكون درجة الحرارة تتراوح ما بين خمس درجات إلى ١٨ درجة تحت الصفر.

وكل هذه المنطقة يسكنها الإخوة من المسلمين القرتشاي.



الأشجار الباسقة في الأماكن المنخفضة على الطريق التي سلكناها في القوقاز قبل قرية تيوزي

ومن لطيف المناظر في هذه الأرض المعشبة؛ بل الكثيفة الأعشاب أننا نرى قطيعاً من الأغنام قد تفرق وهو يرعى من هذه الأعشاب الوفيرة، وراعيه يرعاها راكباً حصانه، وقال الأخ المفتي: إنه من إخواننا المسلمين.

قرية إبل قراقاش:

ومعناه: قرية اللاجئين الضيقة بلغة القرتشاي؛ لأن إبل: وطن أو قرية، وقرا: ضيق، وقاش: لاجئ، وهي ذات بيوت متفرقة تفصل بينها

أشجار الفاكهة، وأنواع المزروعات الأخرى، ذات سقوف مسنمة من الصفيح الأبيض، وشارعها العام ضيق ليس فيه زفت، فوقفنا عند بيت إمام القرية نريد أن نأخذه معنا ألا أن أهله أخبرونا أنه قد ذهب في جنازة أحد أهل القرية، ولن يعود قبل الظهر، وهو إمام القرية التي سنذهب إليها بعد هذه، وذكروا أن هذه القرية تعتمد على الزراعة التي هي زراعة القمح في الأغلب، وعلى تربية المواشي التي أكثرها الغنم، ومثلها باقي قرى المنطقة، ويبلغ سكان قرية إبل قراقاش هذه ٢٧٠٠ شخص.



المؤلف في شارع قرية إبل قراقاش

مسجد القمة:

كنا في منطقة تلال خصبة خضر - كما قدمت - وقد بدأنا الصعود في تلال أعلى منها، وكلها تعتبر من أقدام جبال القوقاز لأننا سوف نستمر في الصعود إلى فترة طويلة.

وصعدنا إلى قمة جبلية عالية، ألا أنها مثل باقي سائر التلال، ليست جبالاً صخرية عادية، وإنما هي مكسوة بالطين الخصب، حتى وصلنا إلى قرية في وديان هذه التلة العالية اسمها: (إيلتار قاج)، ولم نقف عند بيوتها، وإنما صعدنا إلى أعلى قمة فيها، تطل على سقوف البيوت المسنمة، فوقفنا عند مسجد ضخم فخم قد بدأ البناء فيه، ولكنه لم يرتفع بعد، وجدنا عدداً من الإخوة المسلمين في القرية صعدوا إلى التلة التي فيها المسجد، فأخبرونا أن الهدف من إقامته في هذه القمة العالية هي أن يكون أعلى بناء موجود في المنطقة، وبخاصة أن مكانه هو أعلى مكان فيها، ويرتفع عن سطح البحر (٢٢٠٠) متر لأنه كما قلنا في أقدام جبال القوقاز.

وعندما صرت أتأمل هذا الموقع الشامخ لهذا المسجد الوليد كنت أرى بإعجاب أنه حقاً في أعلى مكان من هذه المنطقة الجميلة، ولكن الإخوة المرافقين ذكروا أن أعلى قمة في جبال القوقاز كلها، وهي أعلى قمة في قارة أوربا كلها يمكن أن ترى من هنا إذا كان الجو صاحياً رغم كونها تبتعد عن هذا المكان بـ: ٨٠ كيلو متراً؛ وذلك لارتفاعها وارتفاع موطن المسجد، وهي قمة جبل (إبل روس) التي لا يفارقها الثلج أبد الدهر من صيف أو شتاء.

وقد أشاروا أليها إلا أنني لم أتبينها، وإنما رأيت قمة جبلية بيضاء

مغلفة بالدخان، وربما كان ذلك راجعاً إلى ضعف بصري الذي عجز عن أن يرى أعلى قمة جبلية في قارة أوروبا كلها، إذ يبلغ ارتفاعها سبعة آلاف متر عن سطح البحر.



جامع إلتار قاج تحت التأسيس بين التلال الخضر تشرف على ما حولها

وبهذه المناسبة ينبغي أن نذكر أننا الآن نعتبر في داخل قارة أوروبا، لأن جبال القوقاز واقعة إلى الغرب من بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين الذي يؤلف الحدود ما بين قارتي أسيا وأوروبا من هذه الجهة.

وجدنا مبنى المسجد قويا قد أحضروا له قطعاً ضخمة من

الخرسانة المسلحة المسبقة الصنع، وأكثروا من المواد اللازمة للبناء حوله، فأظهرت إعجابي لهم بقوة عزيمة الإخوة القائمين عليه، وسخاء نفوسهم فاعترضوا حديثي قائلين: إن الذي يقوم على بنائه وينفق عليه هو أخ مسلم واحد، لا يشاركه في ذلك مشارك، وان اسمه (كيني بداخو بارس).

وأسرع أحد الإخوة الحاضرين يرينا مخطط المسجد، فذكر أن المصلى الرئيسي سيكون اتساعه ٢٣ متراً في ١٧ متراً، وأن ارتفاع المنارة سيصل ٢٣ متراً، مع أن المكان مرتفع جداً يرى من مسافات شاسعة، ولكن هدف هؤلاء الكرام من بناء المسجد ورفع شعاره عالياً أن يشعروا الجميع بأن الإسلام موجود في المنطقة، وأنه يبدو شامخاً مرفوع الرأس.



المؤلف في جامع إلتار قاج تحت التأسيس فوق القمة

وبناء المسجد كله من الإسمنت المسلح القوي.

وليس في رأس التلة هذه بيوت بجانب المسجد لكون الموقع الذي حول المسجد ليس واسعاً، وإنما تقع بيوت القرية أسفل من ذلك، فذكروا أن من برنامج الأخ المتبرع بالمسجد أن يخصص حافلة لنقل الراغبين في حضور صلاة الجمعة من أماكن بعيدة، أو الذين لا يستطيعون الصعود إلى المسجد على أقدامهم لكبر أو مرض.

ومن الغريب أننا في هذا المكان الشمالي المرتفع الأخضر قد شعرنا بحرارة الشمس مما لم نكن نتوقعه من قبل، أما الإخوة فإن عليهم القبعات، لا شك في أن ذلك منهم لاتقاء الشمس في الصيف، واتقاء الثلج في الشتاء.



وقفت السيارات قرب مسجد قرية (إيلتار قاج) لأنها لا تستطيع الوصول إليه لارتفاع مكانه

ومما يسجل هنا أن الإخوة دعونا وألحوا في الدعوة لدخول بيوتهم وتناول الطعام أو القهوة أو الشاي، ولكننا اعتذرنا إليهم بضيق الوقت.

ثم ودعنا هؤلاء الإخوة الكرام بعد أن أسهمنا في بناء المسجد بمبلغ معين سلمناه لهم فوراً، وقالوا: إنه لمن الفأل الطيب للقائمين على المسجد أن يشاركهم أهل مكة المكرمة في تقديم شيء من نفقة بنائه.

وصعدنا أقدام القوقاز مع تلال خضر فطالعنا منها القمم العالية فترة ثم تختفي نتيجة لارتفاع الطريق وانخفاضه مع التلال، ولاحظت أن أكثر التلال إن لم تكن كلها عارية من الغابات أو أشجار الأخشاب، فأخبروني أنها كلها كانت قبل الثورة الشيوعية مكسوة بالغابات غير أنها قطعت كلها بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم، ربما كان ذلك من أجل أن تصبح مراعي للماشية ومزارع للقمح، وربما كان ذلك لغير هذا الغرض، ولكننا انحدرنا بعد صعود في إحدى التلال الواسعة، فوجدنا إلى اليمين بقعة لم تقطع أخشابها، وتكون غابة غير واسعة، ولكن الجهة اليسرى التي تقابلها من الطريق خالية من الأشجار، وليس فيها إلا الأعشاب.

ولم نجد سيارات ذات أهمية في العدد هنا، وإنما رأينا للمرة الثانية عربة يجرها حصان عليها رجل وامرأة من المواطنين، ولكنهم في بياض الأوربيين.

وكان انحدارنا النسبي إلى سهل خصب كله ملتف الخضرة ما بين أعشاب طبيعية ومزروعات، توشحه زهور برية صفر ذكروا أنها من نبات يزرعونه ليكون علفاً للحيوان.



صورة للمؤلف في الطريق الذي يخترق جبال القوقاز

قرية الشرق الأحمر:

مررنا بقرية أسمها (كراسلي فوستوك)، ومعناها بالروسية: الشرق الأحمر، ومع هذا الاسم الروسي فإن سكان القرية جلهم من الإخوة المسلمين الأباظة.

لم ندخل القرية، فنحن نريد بلدة أخرى فيها مسجد، وإنما وقفنا نتأمل القرية، ونلتقط بعض الصور التذكارية عندها، وانطلقنا ننحدر من هذه الهضاب القوقازية، ورأينا في الريف بعض نساء الأباظة على رؤوسهن المناديل، وهن كرجالهن بيض كبياض الشراكسة.



ومن المناظر الطريفة في الطريق منظر رجل راكب على فرس قد جنب إليها فلوها، وهو الفرس الصغير، يعني ربطه معها بحبل، فصار يتبعها.

وقرب المستقر من السهل وصلنا نهراً متدفق المياه بسرعة جريانه صار يماشي الطريق، واسمه (نهر كوما) ذكروا أن مزية السكن في هذا السهل أن مناخه دافئ في الشتاء لانخفاضه بالنسبة إلى التلال القوقازية العالية التي تحيط به؛ لكن مشكلته هي مشكلة الضباب الكثيف الذي يكثر فيه، وقد رأينا بقايا ضباب عالق في جوه لم تكمل الشمس المرتفعة الإجهاز عليه بعد.

ورأيت كلباً قصير القوائم، كث الشعر، مما يدل - إن احتاج الأمر إلى دليل - على أن المنطقة منطقة باردة.

قرية كرسنا فوستوك:

وقف الموكب قبل أن يستكمل الطريق انحداره في السهل، حيث أوقفنا السيارات على شفير نهر كوما الذي يقع عليه الطريق العام، ومع ذلك مرت سيارة كبيرة من سيارات النقل الخشنة، فأثارت غباراً كثيفاً رغم كونه مزفلتا، وذلك لكونه ضيقاً.

ودخلنا مسجد القرية، فوجدنا أحد الإخوة المسلمين فيه، وهم يحاولون ترميم سوره، فأسرع ذلك الأخ ينادي إمام المسجد الشيخ (يوسف أزاكوف)، والشيخ يوسف هو الإمام مع أنه لم يتخرج من مدرسة دينية معروفة، وإنما صار إماماً لكونه أكثر معرفة، وأن شئت قلت أقل جهلاً من غيره من أهل القرية بأمور الدين، إضافة إلى كونه رجلاً متديناً مواظباً على الصلاة.



الشارع قبل الدخول إلى مسجد كرسنا فوستوك

والمسجد صغير، ولكنه قديم، ذكروا أن بناءه يرقى إلى حوالي مائة سنة، وأنه كان عامراً أكثر مما هو عليه الآن في عهد قياصرة الروس، وكانت له منارة هدمها الشيوعيون.

وهو المسجد الوحيد في القرية رغم كون أهلها كلهم من المسلمين الأباظة، وعددهم أربعة آلاف نسمة، لا يساكنهم في القرية إلا أربع أسر روسية.

وذكروا أنهم يفكرون الآن في بناء مسجد ثان في القرية، ولكن يمنعهم من ذلك ضيق ذات اليد.



مع المفتي إسماعيل براديوف والأخ رحمةالله بن عناية الله عند مسجد كرسنا فوستوك

وحتى هذا المسجد القديم أرادوا ترميمه وإصلاحه، وجمعوا بعض لبن الأجر الذي رأيناه مكوماً فيه، واتصلوا بهيئة إغاثة عربية وعدتهم بالمساعدة، وطلبت منهم أن يأتوا إليهم على عنوان ذكرته لهم في موسكو، ولكنهم ذهبوا إلى موسكو فلم يجدوهم في ذلك العنوان، فعادوا بخفي حنين بعد أن خسروا وقتاً ومالاً في أجر الركوب، وتبعد عنهم مدينة موسكو ١٥٠٠ كم، فأخبرناهم أننا سندفع لهم حالاً كل ما يحتاجونه لهذا المسجد، وقد دفعنا لهم ذلك بالفعل بعد أن أحضروا مراقب النفقة في المسجد حاجي بيكوف رج بيكوف حسن، والمؤذن،

وذلك بوجود عدد من جماعة المسجد، وكان الكلام معهم باللغة الروسية.

وذلك لكون المسجد خشبياً متواضع البنيان، ولذلك كان محرابه معتاداً ليس فيه أثر من تزيين أو تزويق.

وفي المسجد مثل غيره من مساجد هذه البلدان الباردة كراسٍ مصفوفة يجلس عليها من لا يستطيعون السجود بسبب مرض أو وجع في أرجلهم، ونوهوا بأنها للعاجزين فقط، لأننا أخبرناهم أنه لا يجوز ترك السجود ألا لمن لا يقدر عليه.



مع المسلمين من أهل قرية كرسنا فوستوك عند المسجد

ومن الطريف أن أحدهم طلب منا الانتظار، ثم ذهب وعاد معه



كتاب بالعربية فيه سورة (ياسين) وأدعية كثيرة مكتوبة.

وكان الحديث معهم يدور باللغة الروسية لأنهم من الأباظة أي أهل (أبخازيا) في الأصل الذين لهم لغة خاصة لا يعرفها أهل الأكثرية في هذه الجمهورية، وهم القرتشاي، ولا أهل الأقلية، وهم الشركس.

ودعنا هؤلاء الإخوة الكرام، وسرنا مع الطريق الذي يباري (نهر كوما) السريع الجريان، وأن لم يكن نهراً كبيراً، وكثرت رؤية الأغنام ذات اللون الأبيض غير الناصع، ورأينا فارسين على فرسيهما يتماشيان على مهل، وربما كانا يتحادثان.

ثم تجاوزنا الوادي الأخضر، وصعدنا في الجبال السندسية الخصبة التي تكسوها طبقة من الطين الجيد، ثم انحدر الطريق فرأينا قرية.

قرية قزل بوكون:

ومعناها حمراء بوكون؛ لأن بوكون اسم الجبل، وهو الجبل الذي تقع على أعتابه، ومن أولى بها ومثيلاتها من التسمية بالجبال لوقوعها في جبال قبق (القوقاز) العالية.

وهذه القرية لقوم من القرتشاي أهل الأغلبية في هذه الجمهورية ذكروا أنه لا يوجد حتى الآن مسجد في القرية، ولكن أهلها يعملون على ذلك، وقد اتصلوا بالإدارة الدينية يسألونها المساعدة على بناء المسجد إلا أنها أضعف من الناحية المالية من أن تستطيع أن تساعدهم.

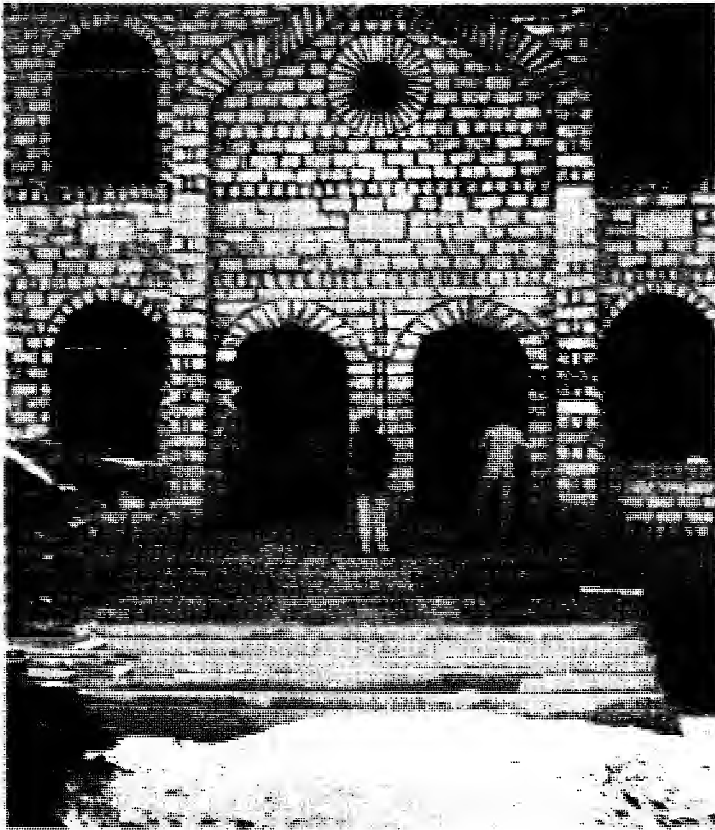
ولم نذهب إلى القرية لأنهم لم يبدؤوا بناء المسجد بعد، وإنما أخبرنا الشيخ إسماعيل علي برديوف رئيس الإدارة الدينية في هذه الجمهورية أنهم بدؤوا العمل في المسجد بالفعل.

قريتا تيريزي:

وهما قريتان متجاورتان تكادان تكونان ملتصقتين، وأهلهما من القرتشاي المتمسكين بدينهم؛ بل المعروفين بنشاطهم فيه، ولذلك صار فيهما مسجدان كبيران بالنسبة إلى المساجد في هذه الجمهورية.

أحدهما (آق مسجد) ومعناه المسجد الأبيض، وهو مبني من الأجر الأبيض الناصع البياض. وقفنا عند:

المسجد الأبيض:



المسجد الأبيض (آق مسجد) في بلدة تيريزي

وهـو جميل المنظـر، حديـث البنـاء، مرفـوع الشعـار، عليـه البـهاء والجلال، له أربع منارات، أعلاها مثل سقف قبته من الحديد الأبيض الناصع البياض، ولذلك استحق أن يسمى بالمسجد الأبيض: (آق مسجد).

استجلينا المنطقة عندما وقفنا في شارع المسجد الذي هو رئيسي، وهو نظيف، وأن لم يكن واسعاً، وعندما مر بنا بعض سكان القرية، وبخاصة من النساء والأطفال رأيناهم على غاية من النظافة والجمال؛ سواء نظافة الأبدان، ونظافة الثياب.



المسجد الأبيض (آق مسجد) في قرية تيريزي صورة في مدخله مع الإمام والحارس

جاء إلينا في المسجد إمامه الأخ الحاج (إلياس بن إسماعيل قوشاي)، وذكر أن هيئة الإغاثة الإسلامية التابعة لرابطة العالم الإسلامي كانت ساعدت في نفقات بنائه عن طريق ممثل لها كان زار مدينة (نالجيك) عاصمة جمهورية (قبرداي بلغار) التي سنزورها فيما بعد بإذن الله تعالى.

وذكر الإمام أنه تعلم في البيت، ولم تتح له أية فرصة لتلقي العلوم الدينية في مدرسة من المدارس، أحضر معه محاسب جمعية المسجد، وكلاهما مثل أكثر المسلمين في هذه البلاد عليهما القبعات، إلا أن الإمام خلعها عندما التقطنا معه صورة في محراب المسجد، ولبس طاقية بيضاء غير نظيفة كانت في المسجد.



في محراب الجامع الأبيض (آق مسجد) في تيريزي مع إمام المسجد

حدثونا عن القرية ونحن في مسجدها بأنها لا تعتبر من القرى الغنية، فهي تزرع البطاطس والخيار والطماطم في الصيف، ولكنهم لا يعرفون زراعة البطيخ ولا القرع، ذكروا أنها لا تصلح عندهم، وربما كان ذلك بسبب عدم اعتيادهم على زراعتها.

والمسجد أشبه بالمكتمل، وجزء منه مفروش بفرش من البسط والبطانيات، وباقيه خالٍ من الفرش، ذكروا أن عدد الذين يؤدون صلاة الجمعة في هذا المسجد يبلغ نحو الستين مصلياً.

وقلت لهم: إن هذا العدد قليل على سكان القرية المسلمين الذين ذكروا أن عددهم يبلغ ألفاً وخمسمائة، فذكروا بأنهم عاشوا تحت الشيوعية التي حاربت الدين، وأكثرهم بدؤوا الصلاة من عهد قريب، ولا يزال عدد المصلين يزداد.

ومن الغريب في الأمر أننا عرفنا ونحن نودعهم أن بعضهم ذكر أن القرية اسمها (قوم صو)، وذكر آخرون أنها (تيريزي).

المسجد الأحمر:

ودعنا أهل (تيريزي) أو (قوم صو)، وسرنا غير بعيد نباري نهراً آخر اسمه (قوم صو) على ضفته الطريق الإزفلتية التي نسير عليها، حتى وصلنا إلى قرية (تيريزا) الأخرى، فرأينا من البعد مسجدها العظيم الواسع، ويسمونه: (قزل مسجد) أي المسجد الأحمر.

وكنت ظننته عندما أقبلنا عليه أحد المباني الحكومية المهمة لضخامته وقوة مبناه وارتفاعه.



المسجد الأحمر (قزل مسجد) في تيريزي

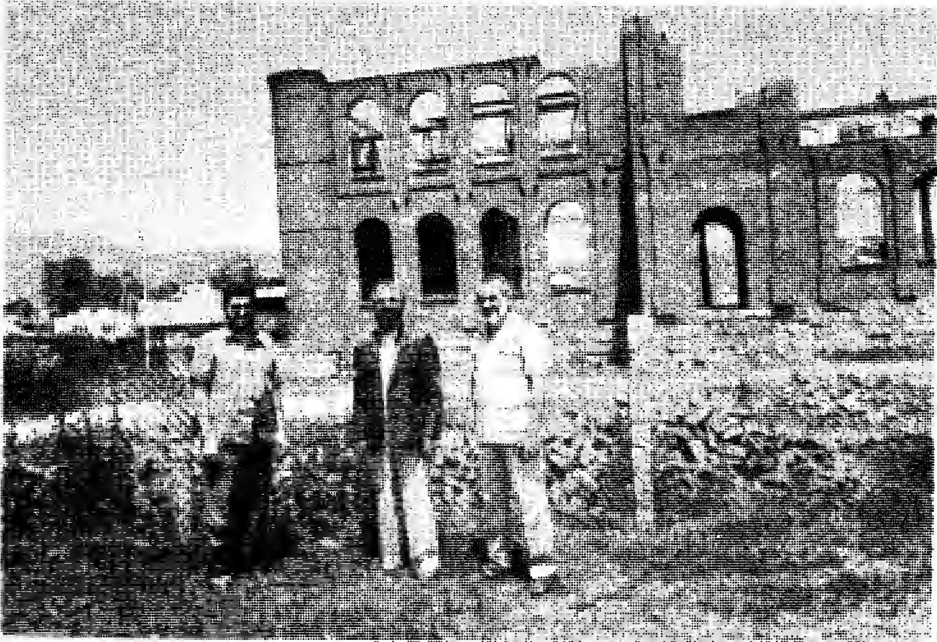
أوقفنا سيارتنا على الطريق مما يلي نهر (قوم صو) الذي هو ليس بالنهر الكبير، ولكن مياهه تسرع في الجريان لكونها قادمة من أماكن مرتفعة.

والمسجد من طابقين مرتفعين أسموه: (المسجد الأحمر) لكونه مبنياً بالآجر الأحمر الذي جعل منظره أحمر، وإن كانت الأعمدة والدعائم والأساسات كلها من الخرسانة المسلحة.

وهو إلى ذلك واسع المساحة، رأينا فيه رافعة شوكية؛ لأنه يصعب رفع مواد البناء فيه بأيدي العمال، ذكروا أن النفقة عليه هي من المسلمين أهل القرية وغيرهم ممن اتصلوا بهم من أهل البلاد، وأنهم لم يتلقوا أية مساعدة على بنائه من الخارج، ولكنهم وقفوا عن العمل مع أننا رأينا بعض العمال لا يزالون يعملون، وإنما أرادوا أنهم وقفوا عن التعاقد على أعمال جديدة فيه لنفاد النفقة منهم، فبشرناهم بأننا سندفع لهم

مساعدة عاجلة بالدولار الأمريكي، وهي خمسة آلاف دولار أمريكي، ويساوي ذلك خمسة ملايين روبل، وهو مبلغ كبير في هذه البلاد.

وعندما سلمنا المبلغ لرئيس جمعية المسجد الأخ قربان باي علي بحضور عدد كبير من أهلها انهمرت دموع الفرح والتأثر من عينيه وهو يدعو لنا، فقلنا له: إن هذه النقود هي من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وإننا نعده أنهم إذا احتاجوا إلى معونة مالية على إكمال المسجد في المستقبل، وكتبت لنا الإدارة الدينية، فإننا سوف نبعث لهم من الرابطة مساعدة أخرى.



تذكارية مع الرفيقين في الوفد عدنان باشا وحسن إزميرلي عند مسجد (قيزل مسجد) المسجد الأحمر في تيريزي



ويبلغ سكان قرية تيريزي ١٦٠٠ أسرة من المسلمين القرتشاي.

وموقع المسجد من أحسن مواقع المساجد التي شاهدنا، فهو على طريق إزفلتي جيد يذهب إلى (منغودي)، وإلى (نالجيك) وغيرهما من المدن في المنطقة، ويفصله هذا الطريق عن نهر (قوم صو) التي تعني بلغة القرتشاي المتفرعة من التركية القديمة: (الماء الرملي)، ولا أدري سبب هذه التسمية.

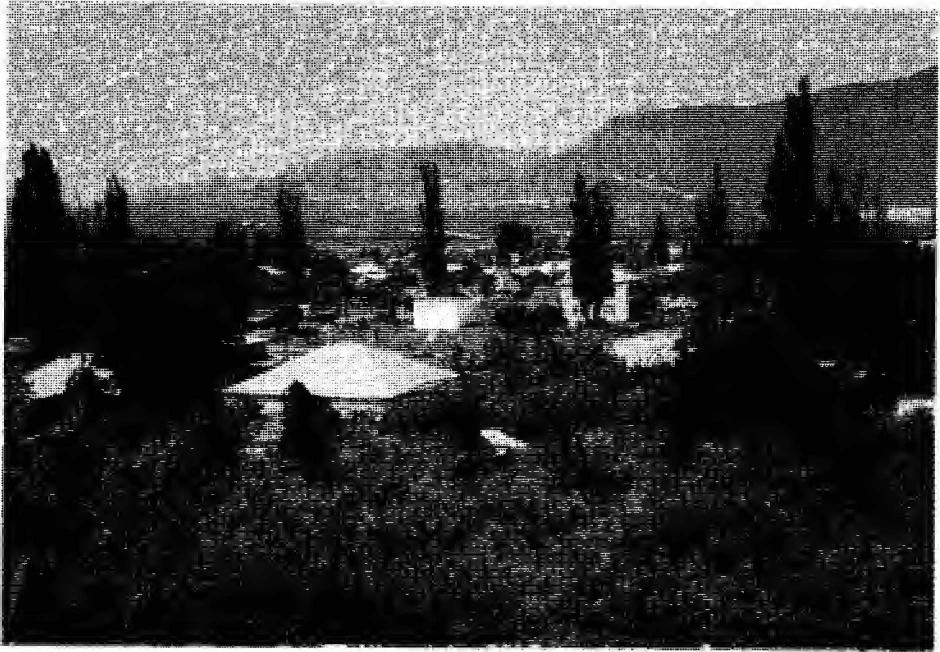
قرية أوج كوكن:

ودعنا أهل قرية تيريزي ومسجدها الأحمر الجميل بعد أن دعونا لهم وشجعناهم على مواصلة العمل فيه، وقلنا لهم: إن المهم أيضاً أن تعلموا أولادكم الدين الإسلامي لكي تعوضوا ما فاتكم من التعلم، وأخبرونا أن الطابق الأرضي من هذا المسجد الكبير سوف يكون كله مدرسة إسلامية.

وسرنا مع الطريق نباري النهر الرملي (قوم صو)، وقال أحدهم: إنه يصح أن يكتب الاسم بالسين بديلة من الصاد، فكرهت أن أكتبها (قوم سو)، ومعلوم أن كلمة (صو) أو (سو) تعني باللغة التركية الماء، مع التنويه على أن لهذا النهر اسماً روسياً هو: (بوت كوما)، أي كوما الأسفل.

وصلنا قرية (أوج كوكن) ومعناه: الشجرات الثلاث في الساعة الواحدة، واسترعى انتباهنا وجود بعض الأبنية الحكومية المتعددة الطوابق التي كانت الحكومة الشيوعية تبنيها شققاً سكنية تؤجرها بأجور زهيدة للناس؛ لأنها ملزمة بتوفير المساكن للشعب؛ حيث لا يسمح

لأحد من الناس أن يبني له بيتاً خاصة في المدن والقرى الكبيرة، بخلاف الفلاحين الذين يجوز لهم أن يبني الواحد منهم له بيتاً في أرضه.



جانب من قرية أوج كوكن

ولكن هذه الأبنية الحكومية في القرية قليلة العدد، محدودة الارتفاع، وربما كان سبب ذلك قلة السكان فيها.

عدلنا من الطريق الذي هو شارعها العام إلى شارع أخر رأينا من المناظر الغريبة فيه فرسين ترعيان في مكان الرصيف من الشارع؛ لأنه لا رصيف فيه، وإنما نمت فيه أعشاب كثيفة مع أنه معمور كله بالبيوت.

مسجد القدوس:

وقفنا عند مسجد القرية، ويسمونه (مسجد القدوس)، وهو قوي البناء، بنوه بالإسمنت المسلح والآجر الأبيض، يقع المصلى الرئيسي في الطابق الثاني، وفي جانبيه شرفتان لصلاة النساء.

وجدنا إمام المسجد حسن عبد الخالق، ويسمونه حسن خالقا، ووجدنا شخصاً أسموه المراقب، اسمه نوروز بن محمد، وبعضهم قال إنه الحارس.



مسجد القدوس في أوج كوكن

ذكروا أن السبب في السخاء في الإنفاق على المسجد أن أحد الإخوة من مواطني دولة الإمارات العربية كان تبرع لهم بأربعة آلاف



دولار أمريكي نفعتهم، كما كانوا تلقوا مبلغاً آخر من هيئة الإغاثة الإسلامية في جدة.

في بيت المفتي:

انطلقنا من مسجد القدوس إلى بيت أخينا ومرافقنا المفتي الشيخ إسماعيل رئيس الإدارة الدينية لجمهورية قرتشاي شركس؛ لأنه في هذه القرية قرية (أوج كوكن).

وتبين لنا أن القرية واسعة تستحق أن تسمى بلدة، إلا أنها متباعدة المنازل لأنها مرتفعة، تتفرق البيوت فيها في المزارع، وبعضها بيوت منفردة لكنها لا تخلو من وجود أشجار الفاكهة التي تنمو في البلدان الباردة.

صعدنا إلى تلة مرتفعة قليلاً حيث دخلنا بيته الذي ترفرف عليه أشجار عالية، وقد ركب جذوعها طحلب أخضر من كثرة المطر الذي نزل عليها في هذا الصيف الذي هو الفصل الممطر في السنة، أما في الشتاء فإن البلاد تكون ثالجة كما تقدم.

وتشاهد من بيت المفتي المرتفع أنحاء القرية، وأنحاء أخرى من الريف الأخضر الندي.

كان هدفنا من المرور ببيت المفتي أن نتوضأ ونصلي الظهر والعصر جمعاً.

وقد وجدت المرحاض عندهم مثل ما هو في جميع بلاد ما وراء النهر، وهو الذي كان عندنا في القديم، إذ يقع في مكان منعزل من فناء البيت المكشوف، وليس فيه ماء جار، وإنما يأخذ من يدخله ماء

في إبريق من أباريق الوضوء.



جانب آخر من قرية أوج كوكن

وقد شاء أخونا المفتي أن تكون الاستراحة في بيته بالصلاة، وبشيء آخر لم نحتسبه وهو الغداء، مع أن والدته وهي امرأة مسنة جاءت تسلم من بعيد، وتلتمس الدعاء، ثم تكلمت كلاماً بلغة القرتشاي التركية معناه: لا بد من أن نطبخ لكم غداء؛ لأنه لا يجوز إلا ذلك، فامتنعنا منه، وبعضنا أقسم ألا يفعل، لأن معنى ذلك أن يذبح ذبيحة، ونبقى في انتظار نضجها فنخسر وقتاً ثميناً، ويخسر هو مالاً مع أنه ليس له راتب يتقاضاه على عمله، وإنما يعتمد - حسبما قال وقال نائبه - على ما يوفره أهله الذين يعيشون على الزراعة من طعام أو نحوه.

غير أنه لم يذبح خروفاً، وإنما أسرع يحضر طعاماً آخر.

وهذا الطعام هو الزبد الذي صنع في البيت، ومعه بيض مقلي طازج من دجاجات لهم ولجيرانهم، ومع ذلك عسل مصفى من إنتاج مزرعتهم، ومربى مشمش جيد، وخبز ممتاز مخبوز في البيت، ثم الشاي.

وقد أكل الرفاق فأكثروا، وبخاصة سائقنا الروسي الذي كان أكله يدل كما لو كان لم يذق طعاماً منذ وقت طويل.

أما أنا فقد أمعنت في البيض المقلي، والخبز الطازج مأدوماً بهذا البيض الشهي، ولم أعدم أن أضيف إلى ذلك لقمة من الزبد بين الفينة والأخرى.

وكانت شبعة واستراحة لم نحتسبها في بيت الشيخ الذي هو نظيف وذو أثاث جيد، وإن لم يكن البيت المبني واسعاً.

ذكريات الإمام:

قال لي الشيخ المفتي إسماعيل علي برديوف، وهو يعرف حرصنا على السرعة إلى السفر: إن لي طلباً أرجو أن تحققه، وهو أن نزور إمام القرية، فهو شيخ مسن، وهو شيخ للجميع لو كان للشيخ مقام في الحكم الشيوعي.

ذهبنا إلى بيت الإمام الشيخ في جهة أخرى تبدو كأنها متصلة بقرية (أوج كوكن)، وهي منفصلة عنها.

فخرج الأمام الشيخ (مهاجر بن رمضان البستاني) وأعجب لاسمه الذي يبدو كما لو كان اسماً لأحد الأدباء العرب القدماء، ولكن ما

أن تكلم معنا حتى زال عجبنا من الاسم، وحل محله العجب من الفعل، فالشيخ مهاجر عمره الآن (٨٥)، وهو صافي الذهن، قوي الذاكرة، يكلمنا بعربية فصيحة واضحة، ولا يعدم أن يستشهد لما يقوله بأبيات من الشعر العربي الفصيح التي يحفظها كما لا يحفظها أكثر الشيوخ من أدباء العرب.



قرية في جمهورية قرتشاي شركس

قال الشيخ مهاجر: لقد تعلمت العربية في هذه البلاد، ولم أسافر لتعلمها إلى بلاد أخرى، ثم جاءت الشيوعية، وصرت أعلم العربية والدين سرّاً لبعض شبان القرية خفية، ولكن الشيوعيين عرفوا ذلك، فزجوا بي في السجن، ولبثت فيه سبع عشرة سنة.



ومع ذلك لم يفتر حماسه لتعليم الدين واللغة العربية حتى كبر سنه.

والعجب أيضاً من حفظه لشواهد النحو من نوادر الشعر وحوشيه، ومن ذلك على سبيل المثال بيتان للزمخشري اللذين عجب وطرب عندما عرف أنني أحفظهما مثله، وهما:

إن قومي تجمعوا وبقتلي تحدثوا

لا أبالي بجمعهم كل جمعٍ مؤنث

وذكر ما يفيده البيتان من أن كل جمع يصح أن يجمع جمع المؤنث السالم.

كما أنشدني أبياتاً من لامية كعب بن زهير المسماة بالبردة لكون رسول الله ﷺ كسا كعباً بردته بعد أن أنشده إياها، وبخاصة هذا البيت الذي يردده أكثر من مرة:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

إن هذا الرجل عجب من العجب، وهو يدل على أن في الزوايا خبايا كما يقال، وأن هذه البلاد المسلمة النائية؛ بل المتخفية وراء جبال القوقاز تحوي من أفذاذ الرجال الذين يجعلنا وجودهم نطمئن على أن التاريخ فيها سوف يعيد نفسه، وأنها سوف تخرج بإذن الله رجالاً عاملين للإسلام مثلهم، أو خيراً منهم.

أخذنا الأخ الشيخ بحق (مهاجر البستاني) بسيارتنا إلى موضع من قريته برومايسكي المجاورة لقرية (أوج كوكن) حتى وقفنا على مسجد بدؤوا في بنائه بأن صبوا أساساته، وأحضروا قطعاً ضخمة من

الإسمنت المسلح سابقة الصنع، يريدون وضعها في أسافل حيطانه، وجاءت سيارة قلاب ضخمة، فأفرغت شحنة من الرمل ذكروا أن ثمنها ثلاثون ألف روبل، وذلك يساوي ثلاثين دولاراً أمريكية تقريباً.



المؤلف يمسك بيد الشيخ الإمام مهاجر بن رمضان عند المسجد الذي يبنونه في قرية (بروما يسكي)

وحدثنا الشيخ مهاجر وغيره من الإخوة المسلمين الذين حضروا عند المسجد أن قرية برومايسكي يسكنها ١٨٠٠ أسرة من المسلمين القرتشاي، ويسكن فيها معهم (٤٠) أسرة من الروس.

وممن حضروا إلينا في أرض المسجد الأخ أحمد بن عمر المسؤول المالي في جمعية المسجد، وهومن القرتشاي، فأعطيناهم فوراً أربعة آلاف



دولار أمريكية، هم يستحقون أكثر منها لعلو همتهم، واستعدادهم لبناء هذا المسجد الذي هو أول مسجد يبنى في القرية بعد الشيوعية؛ حيث كان الشيوعيون قد هدموا كل المساجد الموجودة في المنطقة.

وهذا وأمثاله من كون المسلمين يأخذون في اعتبارهم عند بناء كل مسجد أن تكون فيه مدرسة لتعليم أولادهم، مما يؤكد الأمل العظيم في عودة الإسلام نقياً مزدهراً إلى هذه البلاد.

وقد كنا نسارع إلى عرض المنح الدراسية على المسلمين الذين نبحث معهم هذه الأمور، إلا أن الذي يفت في العضد هو قلة الطلاب الذين لهم إلمام بالعلوم الإسلامية واللغة العربية حتى ولو كانوا قد حصلوا على الشهادة الثانوية في بلادهم على سبيل المثال.

ولكن هذا يمكن علاجه في إدخالهم في معاهد تعليم اللغة العربية لغير العرب الموجودة في معظم الجامعات السعودية، وبخاصة جامعة أم القرى في مكة المكرمة، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

بلاد

القبرداي بلغار



تمهيد:

قال يوسف عزت باشا، وهو من الشركس في كتابه: « تاريخ القوقاز » :

« قبيلة قابردي (قبرداي _ قبرطاي)

هذه القبيلة تُعدُّ من أمهات القبائل الجركسية المستقلة، ولها تقاليد وعادات خاصة، وتاريخ قائم بذاته، والقابردي من أشد الجراكسة محافظة على دينهم وتقاليدهم وأزيائهم القومية، وهم مغالون ومبالغون في عصبيتهم، ويزعمون أنهم أحفاد رجل عظيم اسمه (تامبي قبارت)، ولا تزال بقايا أفراد عائلة هذا الرجل موجودة للآن ضمن القبيلة، ولهم فيها مكانة مميزة، ويلقبون بـ: (وَرْق)، ومعناها باللغة الجركسية « نبيل » .

كان أفراد هذه القبيلة يسكنون قديماً جهات نهر كوبان Kuban ، وبحر أزوف الشرقي Azov، وفي القرن السادس للميلاد استولوا على بعض سواحل أزوف الغربية Azov، ودخلوا شبه جزيرة القرم واستوطنوها، ولهم فيها آثار ومسميات تدل على ما كان للقوم من مدنية ورقي. وقد اضطروا في القرن السادس للعودة لجهات كوبان Kuban ، وانتقلوا بعدها لوديان نهر ترك Terek، واستوطنوا فيها مع إخوانهم الذين سبقوهم لتلك الجهات من قبل.

وقد انقسم القابردي في القرن الخامس عشر للميلاد إلى قسمين: القابردي الكبرى (طوْظلهْ دَهْ سْ)، والقابردي الصغرى (جلاسنه يبى) ويفصل بينهما نهر تَرَكْ Terek.



ويجاور القابردي الكبرى أمم الشيشان Chechens، والقوصحه (أستين) Ossetians، وقسم من بلاد الداغستانيين Daghestan.

وفي القرن العاشر للميلاد انفصل من القبيلة الأمير (قانوقه)، وكوّن قبيلة « بسلنه ى » التي تقطن المكان المعروف باسمها. والقابردى معدودون في نظر المؤرخين من أهم سكان القوقاز، وإليهم يرجع الفضل في ابتكار الأزياء والطرز الجركسية، ويضرب برشاقتهم وحسن هندامهم الأمثال.

والمأثور عن أمير القابردى الكبير « يشى أسلان بك » كلمته الخالدة: « يجب أن يحكم ما بين البحرين: (الأسود والخزر) أمير قوقازى واحد فقط ».

وفكرة « الشيخ شامل » أمير الداغستان Daghestan التي كانت تصبو إلى جعل كل منطقة القوقاز حكومة جاءت بعد أن سبقه إلى التفكير فيها أمراء القابردى بمدة طويلة، ولكنهم لم يجاهدوا مثله في تحقيقها.

ولغة القابردى تختلف بعض الاختلاف عن لغة باقي إخوانهم الشراكسة الشماليين في تصريف الأفعال، وهذا الخلاف قلّ أن يلاحظ.

ومن الممكن إدماج جميع لهجات الشراكسة وجعلها لهجة واحدة.

أصل اسم الشركس:

ولتكوين فكرة صحيحة عن نشأة الشعب الشركسي الذي يؤلف (القبرداى) طائفة كبيرة منه، يجدر بنا أن نبحث الأسماء التي سماهم بها المؤرخون والأمم المجاورة لهم.



ففي تاريخ (هيرودوت) يوجد كثير من المعلومات عن بحر «أزوف» ، وعن قبائل (السبندى)، والأبخاز (الأباظة) الذين يعدون من أمهات القبائل الجركسية الكبيرة، كما اتفق على ذلك سائر المؤرخين.

أما (سترابول) الذي كتب في القرن الأول للميلاد، فيسمى الجراكسة: (جيكَسْ أو جيكَتْ)، و(يلين) يسميهم (سَرْسَتْ) أو (كَرْكَسْ).

والحقيقة أن كل هذه الأسماء إن هي إلا أسماء خاصة ببعض قبائل الجراكسة، علاوة على ذلك، فقد كانت هناك قبيلة شركسية تسكن شمال بلاد القوقاز وتسمى (سيراكَسْ).

وقد ذكر الرومان بلاد الجراكسة باسم: « تسوخيا »، أو «جيخيا » .

ومؤرخو الدولة البيزنطية اصطلحوا على تسمية بلاد الجراكسة (قازادخيا).

كذلك أطلق الروس على الجراكسة اسم (قاسوغى).

ويستخلص مما سبق أن لقب (جركس) مأخوذ من اسم (كركس)، أو (سرست) الذي لقب به قدماء اليونان إحدى قبائل الشركس، أو من اسم (سراكس) الذي سموا به أخيراً قبيلة أخرى من القبائل الجركسية.

والجراكسة معروفون بين العرب باسم (سركس)، و(سراكس)، وليس هذا اللقب (جركس) مأخوذاً من اللغة التترية كما يزعم بعض مؤرخي الأتراك.

إلى مدينة نالجيك:

هكذا كتبناها اتباعاً لأسلافنا العرب الأقدمين الذي كتبوا الحروف غير الموجودة بالعربية بالحروف القريبة منها بالعربية، وإلا فإن الجيم في نالجيك هي معطشة يكتبها بعض الناس المتحذلقين بجيم تحتها ثلاث نقط بدلاً من نقطة واحدة، وأما لفظها فإنه قريب من لفظ الحرف الأول في اسم تشرشل الذي يكتب بحرفين عربيين هما: تاء وشين، إلا أنه يلفظ بلفظ ذلك الحرف، و(نالجيك) هي عاصمة جمهورية (قبرداي بلغار).



الطريق الأخضر في جبال القوقاز

ودعنا أخانا المفتي الشيخ إسماعيل بيراديف، وبقي معنا من

المرافقين من أهل هذه البلاد النائية الأخ الشيخ إسماعيل بوستان نائب المفتي، والأخ عبد العزيز شعيب السوري الشركسي الأصل، وسوف يرجعون مع السيارة إلى شركس عندما نصل نالجيك.

وتبعد (نالجيك) عنا الآن ١٤٠ كيلو متراً تقريباً، والساعة الآن هي الرابعة إلا الربع عصراً.

فارقنا القرية فرأينا على الطريق مسجداً مبنياً بالآجر الأحمر؛ إلا أنه مكتمل لا يحتاج إلى مساعدة، لذلك لم نقف عنده، وهو مثل سائر المساجد هنا جديد البناء.

ثم تجاوز الطريق نهراً صغيراً ظل يماشينا إلى يسار الطريق فترة، وعلى أيمن الطريق أشجار كثيرة من أشجار التفاح المثمرة، لكن ثمرها لم ينضج بعد.

حدود ولاية قرتشاي شركس:

وصلنا إلى الحدود النهائية لجمهورية قرتشاي شركس، وكنا نظنها متصلة بحدود شقيقتها في الإسلام التي نحن ذاهبون إليها، وهي جمهورية قبرداي بلغار، ولكن تبين أنها تفصلها عنها أراضٍ تابعة لإقليم (إستفرابول)، وهو إقليم روسي فيه عدد من المسلمين يؤلفون أقلية، ذكروا أن الأراضي كانت من قبل تابعة لبلاد القرتشاي، ولكنها اقتطعت منها، والمراد بالإقليم الروسي أن أكثرية السكان فيه هي من الروس غير المسلمين، مع أنه لم يكن من بلاد الروس الأصيلة، وإنما أصبح كذلك بعد أن استولى الروس في عهود القياصرة على هذه المنطقة من بلاد القوقاز، ولم يكن على الحدود أي شيء يدل عليها من

علامات أو كتابة أو نحوها ما عدا ضيقاً في الطريق جعلوه ضيقاً بقطع من الخرسانة المسلحة، وليس عنده جنود، ولا ما يستدعي وقوف السيارات، أو الناس.



غابات الطريق بين جمهوريتي قرتشاي شركس وقبرداي بلغار

ومر الطريق ببلدة أسمها (كوسلا فوسك) مدينة اصطياف ومنتجعات صحية، وهي واسعة، ذكروا أن فيها وفي ضواحيها ستة آلاف من المسلمين القرتشاي لهم مسجد واحد؛ لأنها في الأصل من بلادهم، ومن أهم ما رأيناه فيها أبنية كثيرة متعددة الطوابق (عمارات) من أبنية الشقق السكنية التي بنتها الحكومة للإسكان العام.

ونوه الإخوة بأن المسلمين فيها أقلية، وأن أكثر سكانها في



الوقت الحاضر هم الروس والجورجيون والأرمن وعدد من اليهود.

ومن الغريب أنهم ذكروا أن السبب الذي جعل الناس يختارونها للاصطياف والانتجاع الصحي كثرة طلوع الشمس فيها على مدار العام، حتى قالوا إن الأيام المشمسة فيها هي ٣١٠ أيام في السنة.

ومع هذه الأهمية للمدينة، فإننا رأينا فيها محطة لبيع وقود السيارات فيها صف طويل من السيارات (طابور) في انتظار الحصول على الوقود منها، مع العلم بأن هذه البلاد التي هي جزء من جمهورية روسيا الاتحادية لا تعاني نقصاً في الوقود، ولكن المشكلة في سوء التوزيع، وذكروا أن معظم البنزين الذي يأتي إليهم من روسيا يأتي من بلاد إسلامية هي بلاد الشيشان، وبلاد التتار (جمهورية تتارستان).

ونوه نائب المفتي بأن المسلمين في منطقة (إستفرابول) هذه هم تابعون من الناحية الدينية لإدارتهم الدينية التي عاصمتها (شركسك) لأنه لا توجد إدارة دينية في (إستفرابول)، وكانت جمهورية قرتشاي هذه من قبل تابعة من الناحية الإدارية لمنطقة (إستفرابول) هذه، وذلك إلى ما قبل سنة ونصف، وكذلك لا يوجد في الجمهورية مجلس نيابي (برلمان) حتى الآن.

كنا نسير على خط جيد واسع لأنه يمتد بعيداً حتى يصل إلى موسكو، وسلكنا طريقاً أخر يصل إلى مدينة (جتى نورسك) التي هي عاصمة مقاطعة (إستفرابول) الروسية، وفيها مطار يستعمله من يسكنون في جمهورية قرتشاي شركس التي ليس فيها مطار.

وذكروا أن سكان (جتى نورسك) هذه كلهم من غير المسلمين، مع أنها في منطقة كانت من بلاد المسلمين في الأصل.

وعندما وصلناها اتضح لنا أنها كبيرة فيها (عماير) ضخمة، ومرافق واسعة من الشوارع والميادين، والغريب أنها محاطة بالغابات، فلم تقطع كما قطعت في أكثر المناطق التي يسكنها مسلمون.

وتبعد (٩٥) كيلو متراً عن مدينة (شركسك) التي غادرناها اليوم، و(٨٥) كيلو متراً عن مدينة نالجيك التي نحن ذاهبون إليها الآن.

وكثرت اللافتات التي تشير إلى أماكن المدن والقرى، أو الاتجاه إليها، ولكنها كلها بالحروف السيريلية التي هي الحروف ذات الأصل السلافي التي لا نعرفها، ولا يعرفها من تعودوا على الحروف اللاتينية لأنها غيرها، إلا ما كان من أمر أسماء المدن الكبيرة، فإنهم أحياناً يكتبونها بالحروف اللاتينية بجانب الحروف السيريلية.



صورة للسهل الذي مر به الطريق في جبال القوقاز
(التقطها المؤلف من السيارة)



وانحدر الطريق بعد أن أبعدنا عن (جتى نورسك)، وصارت تطالعنا قمم القوقاز الخضر العالية، لا يمنعها ارتفاعها عن أن تكون خضراء، لأن ارتفاعها متدرج، وليست واقفة تتجرف تربتها مع الأمطار والثلوج.

أما الطريق فإنه لا بأس به، فهو واحد للسيارات الذاهبة والآيبة، يفصل بينهما خط أبيض، ويتسع كل مسار منهما لسيارة واحدة، مثله في ذلك مثل باقي الطرق في هذه البلاد الروسية التي هي دون الطرق في بلادنا بمراحل، فهي ضيقة، وأحياناً تكون في وضع سيئ.

وتجاوزنا نهراً واسع المجرى، يقع في سهل ضيق لم يعرف المرافقون اسمه، إلا أن المنطقة معمورة سواء بالزراعة أو بالقرى من دون كثافة، أي أن العمارة فيها مزدحمة، ولذلك كانت البيوت الريفية فيها متباعدة، وكلها ذات سقوف مسنمة حتى تنزلق عنها مياه الأمطار والثلوج، ويبدو البيت فيها على البعد كما لو كان غرفة واحدة، إلا أنهم أخبرونا أنه يكون فيه أكثر من غرفة إلا أنها ضيقة.

من المناظر في هذا الريف غير القريب من المدن، منظر امرأة روسية ذات مظهر مدني تسير على الطريق وحدها، لم تجد من يقف من المارة ويركبها.

حدود جمهورية قبرداي بلغار:

وصلنا منطقة غابات عذراء، بمعنى أنه لم يجرِ فيها تغيير، وعندها وصلنا إلى حدود (جمهورية قبرداي بلغار)، وقد وضعوا على الحدود بناء يشبه أن يكون غرفة صغيرة ذات طابقين لها درج خارجي

من الحديد ، و(مطبات) اصطناعية ، ولم يعترضنا معترض ، فليس هناك موظفون أو شرطة أو نحوهم.



على الحدود بين إستفرابول وجمهورية قبرداي بلغار

وبداية حدود جمهورية (قبرداي بلغار) تعني نهاية الأرض التي تتبع مقاطعة (إستفرابول) الروسية التي بدت لنا كأنها وضعت بمثابة الحاجز المقصود الذي يمنع اتصال هاتين الجمهوريتين من جمهوريات المسلمين بحدود مشتركة ، مع العلم بأن الشركس موجودون في الجمهوريتين كلتيهما ، إلا أنهم في الأولى أقلية ، واسمهم هو الصريح (شركس)، وفي الثانية هذه التي ندخلها الآن أكثرية ، ولكن باسم (قبرداي)، والقبرداي شركس أصلاً مثلهم في ذلك مثل أهل جمهورية (الإديغي) التي زرناها قبل زيارة جمهورية (قرتشاى شركس)، وأفردت

لها كتاباً عنوانه: « في بلاد الشركس »، وقد سبق ذكر ذلك.

هذا وتبلغ المسافة من حدود جمهورية (قبرداي بلغار) التي عاصمتها نالجيك ٧٢ كيلو متراً كلها داخل هذه الجمهورية الصغيرة.

وقد رأينا الأشجار هنا أكثر التفافاً كما ترى من الطريق، كما حسنت حال الطريق، وظهر ذلك جلياً في استقامته.

أول قرية قبرادئية :



بعد قرية (زالو كوكوادج) القبردائية داخل جمهورية قبرداي بلغار

ووصلنا إلى أول قرية لإخواننا (القبرداي) الذين هم الشركس كما قدمت، وظهر ذلك واضحاً من صعوبة النطق باسم أول قرية

وصلناها لهم، وهي (زالو كوكوادج)، وقد قدمت أن الأسماء الشركسية صعبة في النطق، والأصعب من النطق بها كتابتها؛ لأن هذه اللغة عريقة، وفيها حروف كثيرة ليست في العربية؛ بل إن الحروف فيها أكثر من ضعف الحروف في العربية إذ تبلغ ٧٨ حرفاً.

ولم نقف عند هذه القرية رغم أن المناظر التي حولها تغري بذلك، فهي ربى سندسية تطالعك في كل اتجاه، إضافة إلى نضارة عجيبة في أشجار الطريق الملتفة.

نهر سينا تاخرا:



قرية سينا تاخرا للقبرداي

مر الطريق على جسر فوق نهر (سينا تاخرا)، وهو قليل الماء رغم

سعة مجراه، والقياس أن تكون مياهه كثيرة الآن، لأنه وأمثاله من أكثر أنهار المنطقة تقف عن الجريان في الشتاء، لأن الجبال والأماكن المرتفعة التي تمدها بالمياه تتجمد في الشتاء، ولا يكون هناك أمطار في ذلك الفصل وإنما الأمطار صيفية، فيجتمع في الصيف ماء المطر مع ذوب الثلوج فتفعم الأنهار بالمياه.

وعلى ضفة هذا النهر قرية صغيرة للقبرداي اسمها (سينا تاخرا) التقطت لها هذه الصورة.

بلدة رقريس:

وصلنا إلى بلدة صغيرة اسمها (رقريس)، ذكروا أن سكانها مختلطون من القبرداي والروس، وأنه ليس فيها مسجد.

وتعجبت من كون بلدة فيها عدد من المسلمين لا يوجد فيها مسجد، وقال مرافقنا نائب المفتي الشيخ إسماعيل بوستان: إن الناس هنا يقولون: نحن مسلمون، ولكنهم لا يصلون، ولا يقومون بالشعائر الدينية الأخرى غير الصلاة.

وعقب الآخرون بأن هذا من تأثير التربية الشيوعية الإلحادية، وأن كثيراً منهم يكتفون من الإسلام بكونهم غير نصارى.

ولا شك أن هذا كله من أسباب معاداة الدين، وتحريم تعليم الدين الإسلامي لمدة ٧٣ سنة، ويمكن إذا تكاثفت الجهود، وصدقت النيات، وساعد المسلمون من الحواضر الإسلامية إخوانهم في هذه البلاد أن يصحح هذا الوضع، وأن يعود الإخوة المسلمون هنا إلى التمسك بدينهم الإسلامي، وتأدية شعائره الدينية السمحة.



وبينما كنا نتحدث وصل بنا الطريق إلى قرية صغيرة للقبرداي أيضاً اسمها (سارما كفو)، وبعد أن تجاوزناها رأيت أول حمار في هذه المنطقة يسير على طريق السيارات، وفوقه حمله من العلف، وعلى يسار الطريق حقول قمح حصيد.

وبهذه المناسبة أخبرنا الإخوة المرافقون، وهم من أهل المنطقة، أن هذه الجهات تنتج خيرات وفيرة من الحبوب والغلات حتى الفاكهة، ومن أهمها: التفاح والخوخ، ويشتهر تفاحها في بلاد القوقاز.

ومما يجدر ذكره أن عدد المسلمين في هذه الجمهورية: جمهورية (قبرداي بلغار) هو أكثر من غير المسلمين، وهذه أول جمهورية صغيرة من القوقاز نمر بها في هذه الرحلة يكون للمسلمين أغلبية، مع أن البلاد هي بلادهم في الأصل، وكانت في وقت من الأوقات خالصة للمسلمين ليس معهم إلا من لا يؤبه لعددهم، وذلك قبل الحكم الروسي.

ثم تجاوز الطريق نهراً صغيراً فوق جسر أقيم عليه، مع أن الذي نراه أن المنطقة لا تحتاج إلى مياه هذه الأنهار في ري المزروعات الصيفية التي هي عماد الزراعة في هذه البلاد لغزارة الأمطار، وعدم تخلفها ما عدا القمح الشتوي الذي يبذر قبل سقوط الثلج، فيسقط فوقه الثلج الذي يخصب الأرض، حتى إذا حل الربيع، وذاب الثلج أطل القمح بوريقاته، ثم ما يزال يقوى عوده مع الدفء حتى الحصاد.

واتسعت الحقول، وحتى الطريق اتسع عما كان عليه، غير أنه ليس بالطريق المزدوج مثل طرقنا السريعة، ومررنا بلافتة مكتوبة بالروسية تشير إلى جهة من جهات الجبال، وأكثر الجهات فيها تلال



من الجبال، فذكروا أنها تشير إلى قمة (إبل روس) أعلى قمم أوروبا الجبلية، وهي واقعة يمين الطريق.

ثم بدأ الطريق يصعد جبالاً عالية؛ لكنها غير وعرة، وكلها من جبال القوقاز، ولكنها ليست بالقمم المرتفعة، لأن الطريق يبحث عن الأماكن السهلة.

إلى أن هبطنا سهلاً خلا الطريق فيه من عمارة أو غراس حتى بدا ليس عليه شجرة واحدة، وقد بادرت بتصويره والسيارة تسير، وتغلقه في النظر جبال قوقازية بعيدة.

بلدة بختن:

حاذينا على يسار الطريق بلدة بختن، وهى عاصمة محافظة اسمها (بختن)، ذكروا أن سكانها مختلطون من الروس والبلغار والقبرداي، والبلغار والقبرداي هم من إخواننا، وإن لم تجمعهم جامعة النسب، فالبلغار يتكلمون التركية أو فرعاً منها، وهم في الأصل من سكنة نهر إيتل (الفولجا)، والقبرداي هم من الشركس كما تقدم.

ومن المناظر في جانب من هذه القرية (سرح البقر)، وهو الأبقار التي تجتمع للذهاب للمرعى، ومالكوها عديد من الناس، فالبقر فيها ملك شخصي لأحد المواطنين، وليست من الأبقار التي تمتلكها الدولة.

ومن الطريف الذي جعلنا نجزم بأن هذه الأبقار السارحة ابتغاء المرعى، وهي الآن آيبة من السرح هي لأفراد وليست ملكاً للدولة أن إخواننا المرافقين عرفوا ذلك من وجود ثلاثة أو أربعة من الجواميس بينها، قالوا: إن الدولة لا تربي الجواميس مطلقاً، فهذا يدل على أنها



للأفراد.

وواصلنا السير، فاخترق الطريق قرية (كزبرون)، وهي متفرقة المنازل متباعدة، وذلك لكونها ريفية، من أهم ما رأيناه ظاهراً فيها كومة من القمامة تحترق قد انتشر دخانها فيما حولها.

وبعدها نهر (بختن)، وبه سميت البلدة، وهو صغير ضيق المجرى.

عتبة قوقازية:

لم نقف في قرية (بختن) ولم نذق ماء نهرها الصغير، وإنما ذهبنا مسرعين نبتغي الوصول إلى (نالجيك) العاصمة في وضح النهار، أو على الأقل قبل أن تغرب الشمس، فصعدنا عتبة من عتبات القوقاز، وهي تلة قوقازية واسعة، ولكنها خصبة جداً؛ لأن ظهرها ليس صخراً صلداً، وإنما هو طيني خصب قد انتشرت فيه حقول قمح أصفر حصيد، وحقول لمزروعات أخرى خضر منها بعض الذرة الصغيرة.

ورأينا (سرح بقر) ضخماً، وهو القطيع من البقر الذاهب للمرعى، وقد جلس راعيه ناحية فوق بساط من العشب الأخضر.

ثم تطامنت تلك التلة، فتطامن معها الطريق، فعادت الأشجار النضرة إلى جانبيه، حتى صار الطريق منها كأنما يمر بين حائطين أخضرين.

هذه مدينة نالجيك:

قبيل الدخول إلى مدينة نالجيك عاصمة جمهورية قبرداي بلغار افترق الطريق، فصار في اتجاهين بينهما جزيرة خضراء.



الطريق المزدوج قبيل الوصول إلى مدينة نالجيك

ودخلنا ضاحية مدينة (نالجيك) في السادسة تماماً من بعد العصر، وأول ما رأيناه منها نهر متوسط السعة تتدافع مياهه في مجراه، وكأنما تتطلب منه مخرجاً.

وأسرع الطريق ينحدر إلى المدينة التي بدت كأنها هي في وهدة بالنسبة إلى الجهة التي قدمنا منها، وكان أول عمارة فيها أبنية عالية متعددة الطوابق من تلك الأبنية التي بنتها الحكومات الشيوعية شققاً لإسكان الشعب، وعلى الطريق أشجار كأشجار الصنوبر.

وكان الطريق العام جيداً، وعندما وصل المدينة صار شارعاً مستقيماً واسعاً محفوفاً بأشجار جميلة مهذبة، وعليه أبنية معتنى بها



مما أعطى المدينة منظراً جميلاً مهيباً عند أول الدخول إليها.



أول ما وصلنا إليه من ضواحي مدينة نالجيك

إلى الإدارة الدينية:

أعجبتني استقامة الشارع وعنايتهم بتشجيره وترصيفه، ولكننا عدلنا عنه قبل أن نستكمله، مع أننا سرنا فيه طويلاً قاصدين شارعاً آخر تبين أنه لا يقل جمالاً عنه إذ هو واسع مستقيم قد غرست على أحد جانبيه أشجار متظاهرة تشبه أن تكون وحدها حديقة مستطيلة؛ لأنهم غرسوها فيه صفاً بعد صف.

حتى وقفنا قرب نهاية هذا الشارع الجميل في موقف تقع الإدارة الدينية لجمهورية قبرداي بلغار عليه، إلا أنها يحول بينها وبين شارعها

هذه الحديقة المستطيلة الجميلة.

وتبين لنا بعد ذلك أنه شارع مهم، وبخاصة أنه يمر بميدان مهم واسع فيه أناس كثر واقفون في انتظار مرور الحافلات.



عند لافتة الإدارة الدينية في نالجيك مع عدنان باشا



رأينا الإدارة الدينية في غرفة واسعة من مبنى جيد، عليها لافتة بالعربية تقول بالحرف الواحد: (الإدارة الدينية الإسلامية قابارردا بالقار)، وذكروا أن الذين كتبوها أخطأوا في كتابة الاسم، وأن الأولى أن يكتب قبردي بالياء لا بالألف المقصورة كما ينطقون به، وتحت هذه الكتابة العربية كتابة الاسم بالروسية.

دخلنا الإدارة الدينية فإذا بها تشغل عدة مكاتب، وفيها غرفة خصصوها للصلاة، وفيها كلها لوحات عربية أصيلة أكثر من أية لغة أخرى، ما عدا الإعلان فإنه بالروسية، أو بلغتهم المكتوبة بحروف روسية.

لم نجد المفتي في الإدارة لأنه لم يكن عنده علم سابق بموعد وصولنا، وإن كان يعرف أننا سنصل إلى نالجيك هذا اليوم.

ثم جاء نائب المفتي (شرف الدين جاجايف)، وهو من البلغار، ويشبه منظره أهل الفولجا في تتارستان وبشكيريا، ومعه الأستاذ (شوقي بلاغ)، وهو أخ سوري من أصل شركسي يعرف اللغة الشركسية معرفة جيدة؛ بخلاف مرافقنا الأخ عبد العزيز شعيب صاحب مدينة شركسك، فإنه سوري من أصل شركسي، ولكنه لا يعرف اللغة الشركسية.

الاستراحة الصحية:

صحبنا الإخوة: نائب المفتي وصحبه إلى الاستراحة الصحية التي يسمونها (سنتوري)، وسبق الكلام على مثلها، وتقع في ناحية من المدينة كانت ضاحية منعزلة، فدخلناها بالسيارة مع بوابة عليها حارس، ثم سلكنا طريقاً فيها مزفلتة، داخلها أشجار كثيفة بحيث

بدا المكان كله كأنما هو غابة مغلقة حتى وصلنا أبنية مختفية في الحدائق، فوقفنا عند أحدها، وحملنا أمتعتنا، وقد قام الإخوة المرافقون بذلك مع الجهد العظيم، لأنهم خصصوا لنا غرفاً في الطابق الثالث، وليس في المبنى مصعد على عادة الشيوعيين من عدم اهتمامهم بما يريح الناس، أو كأنما هم يعتقدون أن مجرد سكنى الشخص في هذا المكان الجيد المحروس هي منة يغتفر في جنبها أي شيء آخر.

وهذا له وجه من الصحة إذا عرفنا أن في هذا السنتوري مطعماً يقدم وجبات غذائية ثلاثاً مع الغرفة بأجر زهيد.



جانب من حديقة المنتجع الصحي (السنتوري) في نالجيك

وهذه الاستراحة الصحية هي حكومية، كانت مخصصة لكبار



رجال الدولة وضيوفها مع أسرهم، ولا يزال الأمر فيها سائراً على ما هو عليه من قبل؛ إذ لا يسكن فيها إلا من يكونون كذلك، وقد حجزت لنا فيها الإدارة الدينية بعد أن أخبرت المسؤولين في الدولة عنا، وعن كوننا ضيوفاً من رابطة العالم الإسلامي في المملكة العربية السعودية.

وجدت في الغرفة سريرين، ومكتباً، وخزانة، ومذياعاً، ولكنني لم أنتفع به لأنني لا أعرف الروسية، وهو لا يذيع إلا بها، ثم إن وقتنا محدود، ولا نعود إلا في الليل متعبين، وفيها حمام، ولكنه مثل سائر الفنادق فيه نواقص كثيرة، منها أنه ليس فيه صابون، ولا ماء حار، وأكثر صنابير الماء فيه غير محكمة الإغلاق، وليس في الغرفة هاتف، ولا تلفاز.

وحتى باب الغرفة يصعب غلقه وفتحه إلا بقوة، وبأن يكون مستعمله حر اليدين حتى يستطيع ذلك، لأنه لا يمكن فتحه وإغلاقه بيد واحدة، ومصابيح الكهرباء قد تلفت أسلاكها الداخلية، فجعلوا لها أسلاكاً ظاهرة متقطعة، وحتى المصباح نفسه سيئ، وأما السرر، فإن أثاثها مثل ما هو عليه أثاث الفنادق في روسيا نظيف، ولكنه ضيق مثل السرير نفسه ضيق، والوسائد غير عريضة، والمناشف صغيرة، ومع ذلك لا تغير إلا إذا تغير الساكن.

مأدبة رسمية:

جاءنا الأخ شرف الدين جاجايف نائب المفتي فأخذنا بسيارته إلى مطعم في فندق حكومي كبير هو فندق نالجيك؛ حيث وجدناهم أعدوا مائدة عليها مقدمات الطعام، وقد تقلص كثيراً عما كنا عهدنا الموائد عليه في الماضي في الاتحاد السوفيتي، وحتى اقتصر على سلطة



من الخيار والطماطم، وقليل من البقدونس، ثم جاؤوا بخبزهم الغليظ الذي تبدو الخبزة الواحدة وكأنها لبنة الآجر، وقد أسميته (عدو الجوع) لكونه يؤكل لمكافحة الجوع، وليس للذة مأكله أو طعمه، ثم جاء الطبق الرئيسي من سمك نهري لذيذ عندهم، فوجدناه ممتازاً، فذكروا أن السبب أنه عاش في ماء صافٍ، ولعلهم يريدون أنه ليس فيه مواد تلويث، أما أن يكون صافياً من الطين والأعشاب فلا أعتقد أن ذلك يصلح السمك، وأحضروا بعد ذلك لحم بط لم نقبل عليه بسبب شكنا في ذبحه، أما الشراب فإنه من عصير البرتقال مع شراب غازي (بيبسي كولا).

وأهم ما كدر علينا الأكل فيه أن فيه فرقة موسيقية صاخبة، ومغنياً يغني بصوت مزعج، وقد أخذ بعضهم يرقص مع امرأته، والمراد بها المرأة التي معه على هذه الموسيقى، ولا شك أن الذي حملهم على ذلك هو كونهم قد استخفهم الطرب على حد قول أبي نواس:

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب

ومن الطريف أن بين الراقصين والراقصات شيوخاً وشيخات قد نثرت السنون عليهم غبار الأيام، وهو الشيب الذي قيل إنه لغيرهم وقار.

وكان النوم جيداً هذه الليلة إذ النافذة مغلقة بغلقها المعتاد، وهي نافذة من الزجاج السميك المزدوج، بمعنى أنها نافذتان من الزجاج السميك بينهما فراغ، والقصد من ذلك ألا يتبدد الدفء الموجود في الغرفة، وألا يدخل البرد الموجود في خارجها في أيام البرد في هذه البلاد الشمالية المرتفعة.

لذلك لم نشعر بالحر هنا ولا بالبعوض.



يوم الأربعاء :٢٤ /١ /١٤١٤ هـ

صباح نالجيك:

بعد نوم هادئ عميق وسط هذه الغابات المتشابكة من الأشجار في هذا المبنى المتخفي فيها عن الأنظار، البعيد حتى عن الأصوات وضجيج العربات، كان الاستيقاظ المبكر للصلاة، ثم أعقبته إغفاءة لذيذة من أهم ما جعلها كذلك أنها كانت بعد تعب متصل أمس مثل الأيام السابقة.

وأزحت ستارة النافذة فأسفرت عن فروع الأشجار المتشابكة الهادئة في هذا الصباح، حتى لا ترى غصناً منها يميل إلى غصن، وكأنما مسها هي - أيضاً - التعب، فراحت في إغفاءة لذيذة.

وحتى العصافير وطيور الغابة أن كان فيها طيور قد لزمت الصمت الذي هو حكمة لا سيما في هذه البلاد التي كانت شيوعية، وكان أهلها يؤمنون أكثر من غيرهم من سائر سكان الأرض بأنه إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب لا سيما وأنهم عرفوا بالتجربة، ثم بالحس المرهف أن للحيطان آذاناً، وأن ظل الإنسان قد يكون جاسوساً عليه أحياناً، وعندما صحا الخيال، وزال الوسن، خرجت أتمشى في شرفة المبنى الذي يشبه مظهره الخارجي مظهر قصر لفقير استغنى، فأعجبني أن رأيت جميع الشرفات والنوافذ فيه تفتح على هذه الغابة الهادئة حتى يحس ساكنوه أنهم وحدهم في جزيرة منعزلة عن العالم، وعرفت السبب الذي من أجله اختار المسؤولون الشيوعيون السكن في مثل هذا المكان الذي لا يصل إليه إلا ذوو الشأن.



وأما الخدم فيه، فإن خدمه كلهن من النساء المترهلات، أو من اللائي أشرفن على ذلك، فهن ما بين عجوز وبين نصف، ذهب أحسن نصفيها، وكلهن لا يعرفن من اللغات إلا الروسية، ما عدا واحدة تبين أنها تتارية الأصل، فكلمها زميلنا الأستاذ رحمة الله بن عناية الله بلغتها لأنها متفرعة من التركية القديمة التي يعرفها، ففهمت منه بعد لأيٍ، وكان أول ما طلب منها أن يكون في الغرف ماء ساخن؛ لأننا كنا بعد سفر بالسيارة نريد الاستحمام، كما أخبرتنا بموعد طعام الإفطار، وأنه لا يكون وفق ما يريده النزيل، وإنما وفق ما يوضع لذلك من ترتيبات، وأنه في مطعم منعزل من هذه الغابة الكثيفة.

وكان الوقت لا يزال مبكراً، فصرت أستجلي المناظر حولي، فأجد الشمس قد أشرقت صافية كأنها تبتسم لهذه الجنة الأرضية، وكأنما هي لم تعرف بوجود أناس يعرفون من أثرها في بلادهم في هذه الأيام ما لا يعرفه هؤلاء الأقوام من حر يصلي الأبدان، ويذيب كبد الضب، كما كان أسلافنا العرب يقولون، وهم يعلمون أن الضب من بين الحيوان البري لا يشرب الماء، ولا يبحث عنه أبداً في حياته.

والربى القوقازية الخضر تطالع من بعيد، وكأنما هي تقول إنني هنا أينما كنتم لا تغيب أنظاركم عني.

وزاد من شعوري بالغرابة؛ بل والغبطة أنني الآن في بلاد أقوام من أهل الإسلام، هم أقارب لأقوام كان لأجدادهم العظام المآثر الجليلة في خدمة الدين الحنيف، والسجلات الحافلة بالتفضيل والتشريف من الإقبال على دين الله من غير قسر أو قهر، وإنما لكونهم شرح الله قلوبهم له فاعتنقوه، ثم أرسل ملكهم إلى الخليفة المقتدر العباسي قبل

ألف عام يطلب منه أن يرسل إليه من بغداد من يعلمهم شعائر الدين، ويفقههم فيما ينفع المسلمين، فأسرع الخليفة يرسل إليهم قاضي بغداد في بعثة علمية كان معها الكاتب المشهور أحمد بن فضلان الذي كتب رسالة عن تلك البعثة، كانت وما تزال هي الوحيدة التي ألقت الضوء على أحوال البلاد في تلك الفترة التاريخية الحالكة السواد، ولا سيما ما ذكره عن أحوال الروس، وكيف كانت الغلبة للمسلمين البلغار عليهم منذ تلك الأدهار، وهي غلبة استمرت قروناً بعد قرون، حتى خالف المسلمون أمر الله بالاعتصام بحبل الله جميعاً، فاختلفوا وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم، وسلط الله عليهم عدوهم الروسي، فخرب عاصمتهم مدينة قازان، ثم وهاهم بقاياهم، أو بنو عمهم الذين هاجروا من نهر إتيل (الفولجا) قد بقوا وهم القلة في هذه البقعة من هذه الجمهورية مع إخوانهم في الدين من الشركس المسلمين لهم جميعاً الغلبة العددية على من فيها من الكفار والملحدين.

فطور الاستراحة:

والمراد بالاستراحة هذه التي نحن فيها التي يسمونها (سنتوري)، والتنويه بطعام الفطور فيها لكونه له نظام غير نظام الفطور في المطاعم العامة.

في الثامنة والنصف تقدمتنا عجوز روسية ثقيلة، يعجب المرء إذا رآها من قدرتها على حمل جسمها، ومع ذلك هي تعمل موظفة في هذه الاستراحة التي أولى بها أن تستريح فيها، لا أن تجعل الشبان الأصحاء الأقوياء يستريحون بجهدها.

واخترقنا مسافة طويلة من الغابة حتى وصلنا إلى مبنى كبير هو



المطعم، فدخلناه ونحن نجزم أننا سنجد مائدة خالية نجلس عليها ونحن أربعة، ولكنهم قالوا إن طعامكم لا يكون إلا بعد نصف ساعة، وبعد لأيٍ وجدنا عجوزاً بلغارية، فكلمها زميلنا رحمة الله بلغتها، فذكرت أن الطعام يقدم على فترتين في موعد محدد هو تمام الساعة الثامنة، وهذا هو فطور الفترة الأولى، والثانية في التاسعة، وأنتم بالذات قد جعلوا فطوركم في التاسعة منذ أن حللتم البارحة، فلا يمكن تقديم الطعام إلا في التاسعة.

وانتظرنا على مقاعد لم تكد تتسع لنا خارج الموائد، ولكن داخل القاعة ونحن نرقب الآكلين الذين كلهم من البيض، الشقر الشعور، وبعضهم معهم أسرهم وأطفالهم حتى حلت الساعة التاسعة، ولا يجوز أن نذهب مباشرة إلى المائدة حتى تأتي الموظفة وتجلسنا حيث أرادت.

لم يطلبوا منا رؤية مفاتيح الغرفة، ولا أية ورقة تثبت أننا من نزلاء المكان، ولكن قيل لنا إنهم أخبروا بذلك من قبل، ومن الطريف أن أحد الآكلين عندما رأى الأخ رحمة الله بن عناية الله يكلم المرأة المسلمة باللغة التركية أسرع إلينا يقول إنه مسلم من التتار، وأنه قد جاء إلى هذا المكان يقضي فيه أسبوعاً مع أسرته، أظنه قال إنهم جميعاً في غرفة واحدة، وذكر أن اسمه نجيب الله بن شهاب الدين، وإنه لم يكن يصلي رغم معرفته بأنه مسلم متميز عن غيره، ولكنه الآن صار يصلي لا تفوته صلاة واحدة، وقد رأيناه بعد ذلك يصلي في هذه الاستراحة من دون أن يعرف أننا نراه.

وذكر لنا شيئاً مفرحاً، وهو أنه قال: إنني مثل كثير من أبناء

المسلمين في هذه البلاد صرنا نتعلم أمور ديننا رغم أننا شيوخ، فقد بلغت الستين قبل أشهر، وتقاعدت عن العمل.

جلسنا على مائدة جيدة من موائد قاعة واسعة مقسومة قسمين تتسع لأكثر قليلا من مائتي آكل في آن واحد، وقد ازدحمت بالناس، إلا أنهم كما قلنا يقسمونهم إلى فريقين.

وجميع العاملات فيها من الإداريات والخادمات وغيرهن هن من النساء، ولم أرَ فيها أي عامل من الرجال، وأكثر النساء هن من المتقدمات في السن، أو من اللائي بلغن منتصفه.

كان المطعم قد خلا بالفعل أو كاد من الذين خصص لهم طعامهم في الثامنة، وبدأ أهل التاسعة يتوافدون، فوجدنا مقدمات كنا افتقدناها منذ زيارتنا الأولى للاتحاد السوفييتي، ومنها الكافيار الأسود مع الزبدة، وطريقة أكل الكافيار أن يضعوه مع قليل من الزبد فوق قطعة الخبز ثم يأكلونه.

ثم جاؤوا ببيض مقلي جيد لم يخالطه مخالط، وكنا خشينا أن يضعوا معه لحماً غير حلال، فذكرت العاملة المسلمة أنهم يعرفون ما يقدمون لنا، لأن الإدارة الدينية قد أخبرت المسؤولين بذلك، ثم جاؤوا بصحن من البطاطس المطحون، ويضعون عليه الزبد إداماً له، وصحن آخر من الأرز المحلى بالسكر، وهو ما لم نستسغه. ومن الطريف أن صحن الأرز الحلو في وسطه نقره صغيرة قد ملأوها بالسمن ليكون إداماً له مثلما كنا نفعل في القديم حينما نقدم (التِّمَّن) وهو الأرز العراقي، نضع في وسطه السمن في حفرة صغيرة نملؤها بالسمن، ونسميه إدامه، ثم جاؤوا بالشاي، وهو الذي ليس جديد التقديم، إذ



تحضره الخادمة في إبريق ضخم لا يكاد المرء يرفعه بيده، فيأخذ منه أهل المائدة، وينتقل إلى غيرهم وهكذا.

وأما بقية الطعام، والمكان، والأثاث، وطريقة التقديم، فإنه جيد مرتب، وكل شيء في هذا المطعم نظيف.

برنامج الزيارة:

حضر إلينا في الفندق رئيس الإدارة الدينية، ويسمونه المفتي، الشيخ (شفيع أويس بشخجيف)، وهو من القبرداي الشراكسة، ونائبه الشيخ شرف الدين، والأستاذ شوقي بلاغ مدير المعهد الإسلامي، وبحثنا برنامج زيارتنا لهذه الجمهورية، وأخبرناهم بالوقت الذي نستطيع تخصيصه لهذا الغرض، وقد أكد الشيخ المفتي على أنه لا بد من زيارة وزير خارجية الجمهورية، وقال: لقد علمت الحكومة بوصولكم، فأكدوا علينا أن يقابلوكم.

وقد ذهبنا معهم إلى الإدارة الدينية حيث عرفنا المفتي الشيخ شفيع بأقسامها، وعمل كل قسم، ثم تحدث عن تاريخ نشوء الإدارة الدينية، وتولي رئاستها في تاريخ ١٩٩٢/٤/١م، وأن سكان جمهورية قبرداي بلغار يبلغ عددهم نحو مليون نسمة، منهم ٧٥ ٪ مسلمون من قوميتي قبرداي الشركسية وبلغار التركية عموماً، بالإضافة إلى قوميات إسلامية صغيرة، مثل النوغاي، والآذاريين، والأبخاز، وذكروا أن الحركة الإسلامية، وتتمثل في العديد من المساجد التي يتم إنشاؤها في مختلف المدن والقرى ... وبعد أن شكرته على استقباله وحديثه، قام وفد الرابطة بصحبة نائب المفتي الأستاذ شرف الدين جاجايف بزيارة الجهات التالية:

المعهد الإسلامي:

كانت أولى فقرات العمل في هذا اليوم زيارة (المعهد الإسلامي).

انطلقنا إليه من دار الفتوى، وهي الإدارة الدينية مع شارع من شوارع (نالجيك) الجيدة ذات الحدائق الملتصقة بالأشجار النضرة، وأغلبها ليس فيها من جهد لآدمي غير تنسيق الغرس؛ لأن السقي على السماء، ففي الشتاء ينزل عليها الثلج، وفي الصيف يرويها المطر.

وقد ذكروا أن نزول الثلج يكون في ستة أشهر، إلا أن الأستاذ شوقي بلاغ وغيره من إخواننا السوريين الشراكسة الذين رأيناهم في هذه البلاد ذكروا لنا أنه رغم نزول الثلج فإن الإحساس بالبرد هنا ليس كما يتصوره المرء إذا عرف أن درجة البرودة تنزل إلى ٥ أو ٨ درجات، لأن الهواء البارد هنا قليل، فيكفي المرء أن يلبس لباساً جيداً فلا يحس بشدة البرد، وبخاصة أن كل الأماكن فيها تدفئة.

وصلنا إلى المعهد، ويقع في حي نالجيك ٣، أي رقم ٣، ويقع في مبنى معهد مهني حكومي استأجروا منه ٢٥ غرفة، في بعضها الفصول الدراسية، وبعضها مخصص لسكنى الغرباء من الطلبة، وذكروا أن هيئة الإغاثة الإسلامية التي تتبع رابطة العالم الإسلامي قد ساعدتهم على دفع الأجرة، كما ساعدت على دفع مكافآت لبعض المدرسين لأن الجهة القائمة على المعهد وهي الإدارة الدينية عاجزة عن دفع أي مصاريف له، وكذلك الطلبة هم أعجز عن أن يدفعوا شيئاً.

والمعروف في مثل هذه الحال التي عليها هؤلاء الإخوة من الجهل بأمور الدين أن تكون للطلبة مكافآت تعينهم على التفرغ للدراسة، غير أن مدير المعهد الأخ شوقي بلاغ أفاد بأنهم يقومون بمعيشتهم،

وإسكان الغرباء منهم، وهذا كافٍ في الوقت الحاضر، لأنهم لو فتحوا باب المكافآت لجاءتهم أعداد من الطلبة لا طاقة لهم بتوفير الدراسة لها.

وذكروا أن عدد الطلبة يبلغ في الوقت الحاضر ١٦٠ طالباً، منهم ٦٥ طالباً يقيمون ويسكنون في المعهد، وهنالك مائة طالب آخرون مرشحون للالتحاق.



صورة تذكارية أمام المعهد الإسلامي في نالجيك مع مفتي جمهورية قبرداي بلغار على يمين المؤلف، والأستاذ شوقي بلاغ على يساره، وبعض الإخوة

ويعمل فيه الآن أربعة مدرسين تساعد هيئة الإغاثة الإسلامية على دفع مكافآت لهم، وهي قليلة جداً إذا قيست بمستوى الأجور في خارج



البلاد، ويكفي أن نعلم أن رواتب الدعاة والمدرسين هنا هي ثلاثون دولاراً في الشهر، ومع ذلك يعتبر كثير منهم أنها راتب جيد يحرصون على استمراره.

ذكروا أن المعهد أسس في أول إبريل عام ١٩٩٢م، وأن التدريس فيه الآن بلغتين هما المحلية، والروسية، ويؤملون أن يتيسر لهم بعد ذلك تدريس العربية؛ لأن المسلمين يكرهون اللغة الروسية، وإن كانت هي اللغة الوحيدة العامة التي يتفاهم بها الناس في هذه الجمهورية والجمهوريات المجاورة في القوقاز التي يقطنها مسلمون، ولكن لهم لغات عديدة.

وقد وجدنا عندهم سفير أبخازيا في هذه الجمهورية، والمراد بذلك الشخص المعتمد فيها لأهل أبخازيا، وإلا فإن أبخازيا لا تزال تسعى للاستقلال عن جورجيا، وأن تكون جمهورية مستقلة خالصة لأهلها الأباظة الذين أغلبهم من المسلمين، أو أن المسلمين يكادون يبلغون النصف من أهلها.

وجلسنا في المعهد جلسة مذاكرة لأحوال المسلمين وما ينبغي عمله لتحسين أوضاعهم الدينية، واتفق على أن تدعيم هذا المعهد، وإنشاء معاهد مماثلة له في عواصم الجمهوريات التي يقطنها مسلمون هو أمر جدي في هذا الموضوع؛ لأن الحالة عندهم قد بلغت درجة من السوء غير متصورة، فعلى سبيل المثال لا يوجد مسجد واحد في (نالجيك) التي هي عاصمة جمهورية أغلب سكانها من المسلمين، وهي من المواطن التي كانت خالصة للمسلمين قبل الغزو الروسي للقوقاز.

وذكروا أن أصعب شيء لاقوه الآن في هذا المعهد هو طبع

المقررات المدرسية لأنه لا أحد يساعدهم، وحتى الحكومة رغم سيطرة أبناء المسلمين عليها، فإنها لا تساعدهم، وإنما يشعرون لها بالامتنان الآن لكونها لا تعارضهم، ولكونها تمنح قطعاً من الأراضي الحكومية لمن يريدون من المسلمين أن ينشئوا عليها مساجد.

ومن ذلك أن الحكومة قد أعطتهم أرضاً جيدة يقيمون عليها مسجداً جامعاً في العاصمة؛ إلا أنهم أعجز عن ذلك.

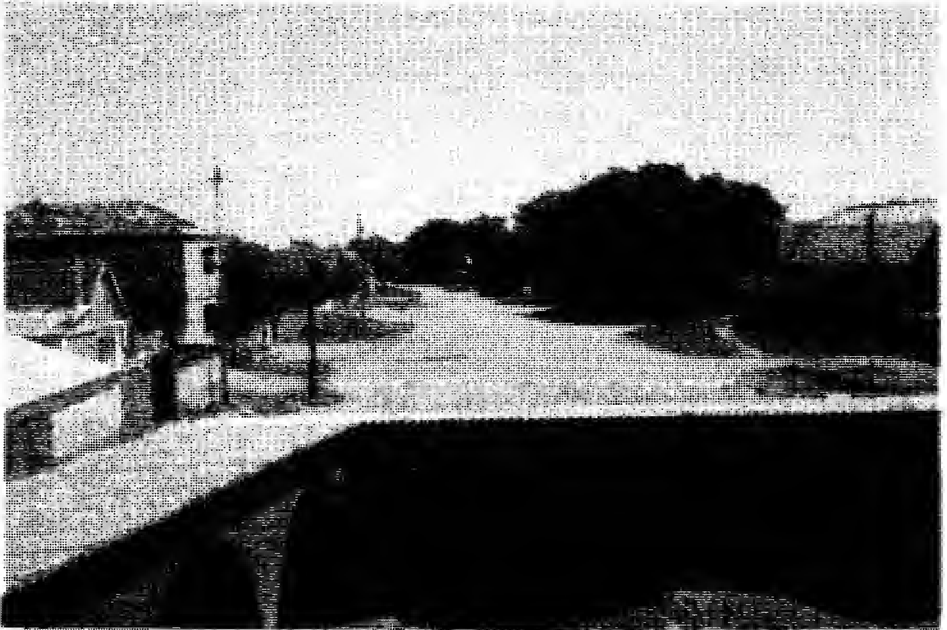
وقد شكرتهم على إنشاء هذا المعهد، وشجعتهم على الاستمرار فيه، كما قلت لهم فيما يتعلق بالجامع إن رابطة العالم الإسلامي مستعدة لمساعدتهم على بنائه، ولكن شرط أن تبدؤوا أنتم بذلك، ويمكن لنا أن نعطيكم من الرابطة شيئاً يساعدكم على حفر الأساسات والبدء في العمل ثم الطلب من إخوانكم في الحواضر الإسلامية أن يساعدوكم على إكماله، ونحن واثقون من تجاربنا المماثلة أن ذلك ميسر بإذن الله، لأن الرابطة تستطيع أن تقدم إسهاماً مالياً من ميزانيتها كما تستطيع أن تطلب من المتبرعين وأهل الخير الذين يثقون بها تقديم التبرعات اللازمة، ومن الطريف في الأمر أنهم ذكروا في تبرير وجوب الاعتناء بهذا المعهد الإسلامي ليكون نافعاً للمسلمين في هذه المنطقة أن ذكروا أنهم يحتلون موقعاً متوسطاً من بلاد القوقاز التي يحدها من جهة الشرق بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين، ومن الغرب البحر الأسود في موقع متساوي البعد من البحرين.

إلى قرية شجم:

ركبنا حافلة صغيره مثل التي كانت معنا في الأيام الماضية، وقد استأجرناها اليوم من مكتب سياحي حكومي من أجل القيام بالجولة

على المساجد والقرى عليها لأن سيارات الإخوة في الإفتاء على قلتها هي صغيرة لا تتسع لنا بخلاف هذه التي تتسع لنا ولمرافقينا ولمن يحتاجون للركوب معنا من غيرهم.

وانطلقنا من شارع (قاقارين) أول رائد فضاء سوفييتي، وهو شارع رئيسي حافل بالسيارات بالنسبة إلى هذه البلاد التي كانت شيوعية تقل فيها السيارات بالنسبة إلى البلدان ذات الاقتصاد الحر.



شارع في قرية شجم

(التقطتها من داخل المسجد)

ومررنا بنهر صغير اسمه (فالوسا)، وهو غير نهر نالجيك الذي مررنا فوقه عند الدخول إليها، وخرجنا من المدينة بسرعة إلى منطقة



ريفية قريبة أكثر أشجارها غير مثمر، وفيها من الأشجار المثمرة: الخوخ والتفاح والكرز والجوز، ولكن الإخوة السوريين ذكروا أن فاكهتها رغم مظهرها الجيد ليس لها طعم الفاكهة في البلدان العربية، وإنما تغلب عليها الحموضة بسبب قلة تعرضها للشمس الصافية.

ثم دخلنا قرية (شجم) وتقع على نهر شجم، وتكاد تكون متصلة بالعاصمة نالجيك.

ورأينا من مظاهر الخصب وكثرة العشب فيها حصاناً يرعى العشب في جانب الشارع الذي يكون فيه الرصيف عندنا في العادة، وليس فيه رصيف عندهم، وهنا سألتهم عما كنا نعرفه من عناية الشركس بالفروسية والخيول، فذكروا أن ذلك صحيح، وأنهم يعتنون بها إلا أنهم لا يأكلون لحومها إلا نادراً، بخلاف الأقوام الذين يرجعون إلى أصول تركية من أهل القوقاز، فإنهم قد اعتادوا على أكل لحوم الخيل.

مسجد شجم

ويقولون فيه: مسجد شجم رقم ٢، و(رقم ٢) وصف للحي الذي فيه المسجد، وليس وصفاً للمسجد، لأنه لا يوجد فيه إلا مسجد واحد.

والمسجد يكاد يكون مكتمل البناء من دورين الأسفل منهما مخصص للدراسة الإسلامية، والذي فوقه مسجد للصلاة.

وجدنا في استقبالنا في المسجد إمامه الأخ (ضياء الدين حج مدار دشك)، والأخ (عثمان قري)، ويسمونه رئيس الأئمة في المدينة.



مسجد قرية شجم

ولم تكتمل منارة المسجد، وهي مستديرة قد أقاموها من الآجر الأحمر، وأحضروا قبتها عندها من الحديد الأبيض اللامع، ولم يركبوها فوقها بعد.

والمسجد مفروش ببسط من الصوف، وبجلود الغنم، لكونها متوفرة عندهم، وهي بصوفها تقي المصلين برودة الأرض.

وقد بقيت على إكمال المسجد بقايا، مثل تسوير أرضه كله، وتبليط بعض أماكنه، وقد دفعنا إليهم مساعدة عاجلة على ذلك.

وفي جلسة قصيرة في داخل المسجد حدثونا عن قرية شجم (٢)

هذه، فذكروا أن فيها ٢٥٠٠ أسرة من المسلمين، أغلبهم من الشركس، وفيهم أقلية من إخوانهم المسلمين البلغار، وعشر أسر روسية من غير المسلمين.



صورة مع رئيس الأئمة داخل مسجد شجم

وقد شكرناهم على همتهم في بناء المسجد، وشجعناهم على سرعة افتتاح المدرسة، وانصرفنا عنهم مع الشارع الرئيسي في القرية، وهو على حالة من السوء لا يظن المرء أن قرية مجاورة للعاصمة من دولة تدعي لنفسها أنها متقدمة تكون كذلك.

ذلك بأن الزفت في الشوارع قد تخرق ثم تمزق، ولا أرصفة فيها،



وحتى النظافة مهملة فيه.

إلى مدينة باخسان:

وهي مدينة مسلمة عريقة كانت فيها مطبعة شركسية تطبع الكتب باللغة الشركسية بحروف عربية.

غادرنا نالجيك، فوقعنا فجأة في الريف؛ لأن أغلب المدن التي كانت شيوعية لا تكون فيها منازل منفردة خاصة فيما بينها وبين الريف.

وأردت التصوير، والسيارة تسير، على عادتي في هذا الأمر، غير أن الحافلة التي استأجرناها اليوم لم تشذ عن القاعدة التي ذكرتها في حال سيارات الأجرة في هذه البلاد الروسية الإدارة؛ سواء أكانت صغيرة أم كبيرة، وسواء أكانت بلادها في سيبريا أم في القوقاز، فالباب الأمامي الأيمن، وهو الذي يكون بجانب السائق، وأنا أجلس فيه من أجل أن تكون الرؤية واضحة وأنا ألتقط ما يعجبني من الصور وأنا في السيارة زجاجه لا يتحرك، فلا يفتح ولا يغلق؛ بل هو دائماً مغلق ومرآة السيارة مكسورة، ومسّاحات الزجاج الأمامي فيها ليس عليها رؤوس، أي أنها كالعصي الحديدية؛ لأن رؤوسها التي فيها المساحات سقطت، ولم يبدلوها، ومن لطف الله أنه لم ينزل علينا مطر، وإلا لما استطعنا الرؤية.

وتبعد مدينة باخسان عن العاصمة نالجيك ٢٧ كيلو متراً، وهي المدينة الثانية في البلاد بعد العاصمة (نالجيك) من حيث عدد السكان.



مررنا في الطريق إلى المدينة بقرية تسمى (دغلفيوي)، وهي للشركس الذين هم القبرداي، ذات بيوت من الآجر، وسقوف حمر على هيئة السنام الواقف.

ولم نقف عندها، وإنما واصلنا السير إلى مدينة (باخسان)، فمررنا في ضاحيتها بنهر باخسان فوقه جسر حديدي، ويفصل هذا النهر بين محافظة باخسان التي مركزها مدينة (باخسان) هذه وبين محافظة نالجيك العاصمة.

دخلنا مدينة باخسان، فعدلنا من الشارع العام إلى شوارع ترابية ليس فيها زفت؛ فضلاً أن تكون فيها أرصفة، وإنما مكان الرصيف أعشاب نامية على مياه الأمطار، وقد سألتهم عن سبب عدم زراعة هذه الجوانب من الشوارع بأشياء نافعة، فأجابوا بأنهم مكتفون من ناحية الغذاء.

وقد كان الجو صاحياً، والشمس حارة، والغبار يتطاير من هذه الشوارع غير المزفتة مما جعلنا نشعر كأنما نحن في بلاد شرق أوسطية غير معتنى بها.

مدرسة دم آدم:

على غرابة هذا الاسم فإنه يرمز لمعنى عظيم إذ هو اسم زعيم مسلم غيور، هو الذي أنشأ مطبعة إسلامية باللغة الشركسية ذات الحروف العربية، وهي التي كان يكتب بها الشراكسة قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم في روسيا، وقد أسموا هذه المدرسة باسمه

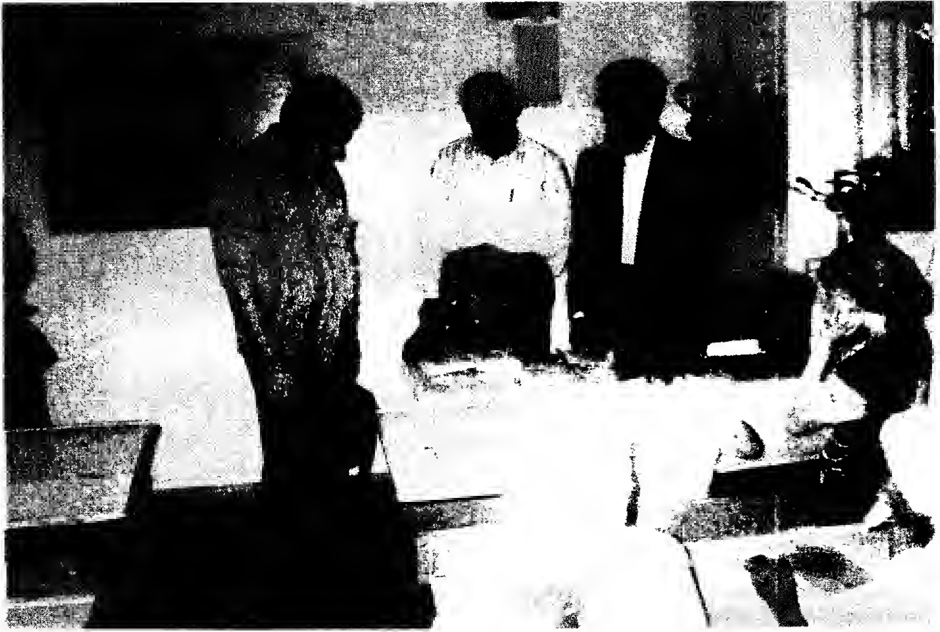
لأنها أتيحت لهم فرصة لذلك بعد سقوط الشيوعية في روسيا.



طلاب وطالبات في مدرسة دم آدم في باخسان

وتشغل المدرسة غرفاً من مدرسة حكومية استأجروها استئجاراً في انتظار أن يقيموا مبنى مستقلاً للمدرسة، دخلنا أحد الفصول، فوجدنا فيها أختاً معلمه تعتبر من المجاهدين - إن شاء الله - لأنها تعلم الطلاب والطالبات الصغار من دون أساس تعليمي سابق، وبوسائل تعليمية ناقصة، ويشمل برنامج التعليم مبادئ الإسلام، وقراءة القرآن الكريم، ومعرفة الحروف العربية.

وقد قرأت علينا طفلتان من المصحف فألفينا قراءتهما جيدة، وأنهما يعرفان الحروف العربية ويقرآن من ذلك، وليس بطريق الحفظ.



في مدرسة دم آدم في باخسان

وقد أخبرتنا الأخت المعلمة (أولى حج مدار) أنها لا تكتفي منهم أن يقرؤوا النص القرآني قراءه جيدة فقط؛ بل لا بد من أن يعرفوا قراءة كل كلمة، ويعرفوا كل حرف عن طريق الإشارة إليه، ولاحظنا ذلك منهم عندما أخذ أحد التلاميذ يتتبع الكلمات التي يقرأها من المصحف الكريم برأس أصبعه يضعها على كل كلمة ينطق بها، فلم يخطئ بشيء.

وقد علمنا أنه رغم قلة الإمكانات، فإنه يأتيهم في المساء كبار من رجال ونساء يعلمونهم أيضاً.

هذا ويبدو التلاميذ على غاية من نظافة الثياب والأبدان والمظهر الحسن.

معهد باخسان الإسلامي:



الأخ إسماعيل طاش بجانبه مشروع المركز الإسلامي الذي سعى لإقامته

من المدرسة الإسلامية (دم آدم) انطلقنا بالسيارة إلى معهد باخسان الإسلامي، وجدنا فيه صاحبه الأخ الشيخ (إسماعيل طاش)، وهو أعجوبة من العجائب؛ إذ هو مقعد، ومع ذلك لم تمنعه علته مع عمل أعمال خارقة، استطاع أن يؤسس بها مدرسة (دم آدم) السابقة، وأن يؤسس هذا المعهد الذي يرجو أن يضم إليه إذا تم كل الفصول



الدراسية الإسلامية، ومع أنه مقعد لا يستطيع أن يقف مطلقاً لأن نصفه الأسفل مشلول، فإنه يسوق سيارة له صغيره من طراز لادا الروسية عدلت بحيث يستطيع أن يسوقها، فيأتي إليها زحفاً، ويركبها بعد أن يفتح بابها بصعوبة، وهو أيضاً يعرف العربية جيداً، وكأنما هو تعلمها في بلد عربي مع أنه لم يفعل ذلك بل لم يغادر بلاده هذه أصلاً، وإنما تعلم اللغة العربية كما قال من القاموس التركي العربي فقط، وتعجب لحفظه ألفاظ العربية، وفهمه القوي لها بحيث استطعنا التفاهم معه بها بسهولة من دون أن يتعلم تعلماً نظامياً أو غير نظامي؛ لأن تعلم الدين الإسلامي ممنوع منعاً باتاً خلال الحكم الشيوعي كما سبق.

ومبنى المعهد مؤقت منحه له أحد محبي الخير حتى يتم مبنى المعهد الجديد الذي حصل على أرضه من الحكومة مجاناً، ويسعى الآن للمباشرة ببنائه معتمداً على التبرعات التي يحصل عليها من الإخوة المسلمين.

جلسنا في إحدى غرف المعهد مع الأخ إسماعيل طاش وبعض الإخوة المحبين الغيارى على دينهم جلسة مذاكرة، فأرانا مشروعاً لما يشبه المركز الإسلامي يريد إقامته على الأرض التي حصل عليها بالمجان من الحكومة، ولذلك أبرز رسم مسجد مهم فيها إضافه إلى مبنى المعهد، وقد وعدناه بمساعدة عاجلة رمزية، وبإعانة جيدة متى بدأ العمل في هذا المشروع المهم.

وأحضر لنا أحد الطلبة، واسمه (تيمور أرغشوفا) عمره ١٧ سنة،

فتلا تلاوة قرآنية جيدة، ثم أحضر طالبة عمرها خمس عشرة سنة اسمها (مارينا قغوث) فقرأت أيضاً قراءة جيدة.



في منزل الشيخ إسماعيل طاش (المقعد) في باخسان في قبرداي بلغار

مسجد باخسان:

كانت الساعة قد بلغت الواحدة والثلث، فتوجهنا مع عدد من الإخوة، وركبت مع الأخ المقعد الذي لم تقعد به همته (إسماعيل طاش) في سيارته التي أعدت إعداداً خاصاً حتى يستطيع سوقها، وتبعنا الآخرون إلى مسجد تحت التأسيس اسمه (مسجد باخسان).

وجدنا طائفة من الإخوة المسلمين في الانتظار على رأسهم الأخ (زيد تتروف) أي زيد بن تتر؛ لأن أوف تعني (ابن) بالروسية، وهو يعتبر إمام الحي مع أنه ليس متعلماً تعليماً إسلامياً، ولكن الأمر في هذا وأمثاله هو أمر اصطلاح.

بل إنهم ذكروا أن الأخ زيد بن تتر هو رئيس الأئمة في باخسان، والحقيقة أنه أكثرهم حيوية وعملاً لعمارة المسجد.



بجوار مسجد باخسان (تحت البناء)

والشيخ زيد هو من القبرداي، وهم الشركس، ولذلك كان المرافقون من الإخوة السوريين ذوي الأصل الشركسي الذين وجدناهم

في موقع المسجد يتكلمون معه بالشركسية، ويترجمون لنا ما يقوله بالعربية، مع أن الأمر لا يحتاج إلى ذلك لأن أخانا الذي لازمنا حتى غادرنا هذه الجمهورية الأخ شوقي بلاغ كان يتكفل بالترجمة.

وجدناهم قد قطعوا مرحلة من البناء في المسجد، وقد جمعوا مقادير كبيرة من لبن الآجر حوله، كما أن فيهم آلات ضخمة تعمل فيه، وهو كبير المساحة، قوي البناء، أخبرنا الأخ زيد بن تتر والإخوة الآخرون أن العمل يقوم به أبناء المسلمين، وأما نفقة المواد فإنها من (كلخوز) يسمونه (يوقشوني)، والكلخوز هو المزرعة التعاونية الكبيرة، وهو شبيه بالحكومي إلا أن الحكومة تمنحه الأرض الصالحة للزراعة من أجل أن يستغلها، وقد أصبح للقائمين عليه صلاحية الإذن بإقامة المنشآت العامة على أرضه كالمدرسة والمستوصف، ولم يكن مسموحاً لهم بإقامة المساجد قبل سقوط الشيوعية.

وأخبرونا أن أرض المسجد كانت تابعة لمرآب للسيارات التي تتبع ذلك الكلخوز.

وتتبع المسجد ملحقات كبيت الإمام، وفصل دراسي، ومحلات للوضوء، ودار ضيافة.

مشروع مسجد:

انتقلنا مع الإخوة إلى أرض في قلب المدينة بعيدة عن موقع (مسجد باخسان)، وتقع في موقع ممتاز على شارع رئيسي مهم، هو (شارع لينين)، وكان من عادة الشيوعيين أن يطلقوا اسم (شارع لينين) على

أهم شارع في مدينتهم، وهي معطاة لهم من الحكومة، إلا أنها غير واسعة إذ هي ٣٦×٣٧ متراً مربعاً، وبجانبها بيتان ذكروا أنهم يمكنهم ضمهما إلى أرض المسجد، أو إبقاؤهما للإمام والمؤذن فيه.



المؤلف على أرض مشروع المسجد في باخسان الذي لم يبدأ ببنائه بعد

ولم يجمعوا شيئاً مجزياً من المال يكفي للبدء في البناء فيه، فأخبرتهم أن هذه الأرض ثمينة، وينبغي عدم التفريط فيها، وذلك بأن يبدؤوا العمل في بناء المسجد بما يستطيعون، وقدمنا لهم مبلغاً من المال يضمونه إلى ما لديهم ليكون كافياً للبدء في صب الأساسات للمسجد، وأخبرناهم أنهم إذا بدؤوا البناء بالفعل فيه، ونفد ما معهم،

فإن رابطة العالم الإسلامي على استعداد لمساعدتهم في الاستمرار في عمارة المسجد، وقد أخبرونا أنهم قد قرروا أن يبنوا مسجداً ذا ثلاث طبقات على هذه الأرض لكونها في وسط المدينة.

مأدبة شركسية:

وكدت أقول إنها عربية شركسية؛ ذلك بأنها في بيت شركسي أصيل، وقدم فيها طعام شركسي أصيل أيضاً، ولكن أكثر الذين حضروا فيها وهم كثر، هم من العرب، فكانت اللغة العربية تجلجل في المكان، لا تسمع معها غيرها، إلا أن كل الحاضرين، رغم كلامهم بالعربية، ومظهرهم العربي، الواضح هم من أصل شركسي، جاؤوا إلى هذه البلاد التي هي بلاد آبائهم وأجدادهم بعد أن سقطت السدود، وأزيلت القيود التي كانت تمنع زيارتها.

وقد أقام المأدبة الأخ الوجيه زيد تتروف في بيته، ودعا إليها طائفة من العرب الشراكسة الموجودين في المدينة قارب خمسة عشر شخصاً.

وبيته يشبه الدارة (الفيلا) التي تقع في بستان، ويصعد إلى البيت من درج، ثم يدخل الداخل إلى البيت الذي فيه غرف من اليمين واليسار ليست كثيرة، منها غرفة الطعام، وهي غرفة الجلوس التي وجدنا المائدة فيها قد نصبت، ووضعوا عليها مقدمات الطعام، وهي السلطة من الطماطم والخيار، وعادتهم أن يقدموه قطعاً كبيرة غير مختلطة، وكذلك العسل والجبن.

ثم جاؤوا باللحم المشوي، والفطائر المحشوة بالجبن، والدجاج المطبوخ، وأما الشراب فإنه عصير الخوخ، والبيبسي كولا، ثم القهوة

والشاي.



مائدة الغداء في بيت الأخ زيد تتروف في باخسان

وقد أكل الجميع هنيئاً على أحاديث شتى من أحاديث هذه البلاد ، ولاحظت أن أكثر هؤلاء الإخوة السوريين الشراكسة إنما جاؤوا إلى هذه البلاد بدافع الاطلاع على رؤية بلادهم القديمة ، ولكن ليس ذلك وحده ، وإنما للبحث عن مشروعات مالية ، أو تجارة مربحة فيها ، هكذا قالوا لي ، وكأنما الطبيعة التجارية ، أو لنقل العقل التجاري السوري قد أثر عليهم ، وهو أمر محمود ، لأن المفروض أن التجارة المعتادة تكون في مصلحة الطرفين.

وليس هذا وحده ما يؤكد سوريتهم، وإنما كلامهم الذي لا يختلف عن كلام السوريين، وهذا أمر طبيعي لكونهم ولدوا هناك، وبعضهم ولد آباؤهم من قبلهم في سوريا، وإنما الشيء الذي فوجئت به أني وجدتهم حتى في مظاهرهم هم بالعرب أشبه منهم بالشركس، فألونهم ألوان العرب السوريين، وتقاسيم وجوههم تقاسيم عربية.

ومن المفرح أن اثنين منهم قالا: إنهما جاءا لغرض الدعوة ولإرشاد هؤلاء الإخوة الشراكسة لاستعادة هويتهم الإسلامية، ومعرفتهم بالدين الإسلامي الحنيف، وأنهما قد تفرغا لهذا الغرض منذ أن وصلا إلى هنا، وأخبرني الإخوة بعد ذلك بصدق ما قالاه.

وبعد الغداء احتجت إلى مكان الوضوء لأننا سنصلي الظهر هنا، ثم نخرج بعيداً في ريف هذه البلاد من دون أن نمر بمسكننا، فأخذني صبي منهم إلى المرحاض الذي رأيته لم يشذ عن القاعدة المتبعة في بلدان ما وراء النهر، وبلاد القوقاز، وهو أن يكون بعيداً عن البيت في حديقته الخلفية، والحديقة فيها أشجار فاكهة مثمرة مثل الخوخ، وفيها أيضاً شجرة من أشجار الجوز مثمرة.

وقد أدينا صلاة الظهر معهم، ثم جمعنا نحن العصر معها.

إلى الريف القبردائي:

كنا منذ أن وصلنا هذه المنطقة نمر بالريف القوقازي في كل رحلة، وأما هذه المرة فإننا سنذهب إلى ريف هذه الجمهورية (جمهورية قبرداي بلغار)، وهو وإن كان قوقازياً مثل غيره، فإنه داخل حدود هذه الجمهورية، ولن يكون ذهابنا إليه من أجل المرور فيه، وإنما من أجل

الاطلاع على أحوال الإخوة المسلمين، عن طريق الاطلاع على مساجدهم ومشروعاتهم الإسلامية، والتحدث مع المسؤولين عنها.

وسوف يمتد سفرنا إلى آخر ما يستطيع المسافر مثلنا أن يصل إليه قبل أن يصطدم بالحيطان القوقازية المنيعة، فتقف الطريق الإزفلتية المعتادة، ويضطر المستمر في السير إلى صعود الجبال على ظهر البغال إن أراد مواصلة السير، حتى تعجز البغال عن الصعود أيضاً، ولو كان لنا من الوقت والجهد ما يمكننا من الاستمرار في السير والصعود إلى أكتاف هذه الجبال العاتية حيث قمة (إبل روس) أعلى القمم الأوروبية، لما توقفنا قبل ذلك، ولكننا سوف نتوقف عند مدينة تيرناوس الواقعة في أحضان جبل (إبل روس).



الربى الخضر تشرف عليها القمم في جبال القوقاز



غادرنا مدينة (باخسان) في الثالثة ظهراً، واخترقنا الشارع الرئيسي فيها حتى تركناه إلى شارع فرعي من شوارعها الداخلية المهملة، فتجاوزنا ضاحية كان أهم ما فيها كثرة الأبنية المتعددة الطابق التي بنتها الحكومة شققاً سكنية للمواطنين، ثم خرجنا إلى الريف الذي هو معمور، ولكنه أقل خضرة ونضارة من ريف (جمهورية الإديغي).

قرية إسلامية:

واسمها ينطق به بتخفيف الياء لا بتشديدها، فليست منسوبة إلى الإسلام، ولذلك يصح أن تكون إسلاميا، ولكننا كتبناها كما سمعتهم ينطقون بها.

وهي للإخوة الشراكسة، فيها مدرسة إسلامية، ويقيم فيها مرشد ديني شركسي الأصل من سوريا، وتقع على نهر متوسط السعة.

وفيها مسجد قديم البناء من العهد القيصري الروسي.

ولم نقف فيها، ولا في قرية بعدها صغيرة.

وقرية رايقوا:

وهي قرية شركسية أيضاً مثل التي قبلها، وعندها مصنع للإسمنت، والريف معمور كله ما عدا ظهور بعض التلال، مع أن التلال كلها وحتى الجبال تبدو الآن خضراً شديدة الاخضرار، وبعضها قد ركبت سفوحه غابات ملتفة.



شارع في قرية رايقوا في قبرداي بلغار

ثم تركنا الطريق الإزفلتي إلى طريق معبد، وليس مزفلتاً، ورأينا خيلاً عديدة شقر الألوان ترعى في هذا الريف الخصيب.

ثم عدنا إلى الطريق المزفلت، أو عاد إلينا، ولكن لم تكن حالته جيدة.

قرية كندلن:

وقفنا عند قرية كندلن للاطلاع على مسجدها، وتقع في واد خصيب بين سلسلتين قوقازيتين، جوانبها تكاد تكون واقفة.

أما القرية فإنها خصبة الموقع، جيدة البيوت، وكل بيوتها مسنمة

السقوف.

وكان من أهم ما يسترعي الانتباه فيها منظر واديها تحيط به الجبال الواقفة، لذلك التقطت له صوراً عديدة.

والقرية للإخوة البلغاريين، وهم مسلمون مثل القبرداي، إلا أن هؤلاء القبرداي وهم شركس، فيهم نسبة قليلة على الدين المسيحي، بخلاف إخوانهم الشركس في جمهوريتي الإديغي وقرتشاي شركس، فإنه لا مسيحي بينهم، وإنما هم مسلمون جميعاً، وإن كان إسلامهم يحتاج إلى تجديد نتيجة للجهل، وتعاقب عهود الإلحاد المعادية للإسلام في بلادهم.



جانب من بلدة كندلن

وقفنا عند مسجد (كندلن)، وهو قديم، كان مبنياً يصلى فيه في العهد الروسي القيصري، ذكر أهله أن عمارته الأولى ترقى إلى أكثر من مائة سنة، ولكن عندما استولى الشيوعيون على الحكم صادروه، واستعملوه نادياً، ثم اتخذوه مستودعاً، ولم يتمكن الإخوة المسلمون من استعادته إلا منذ سنة ونصف، فوجدوه في حالة لا يصلح معها لاستعماله مسجداً، لذلك قرروا إعادة بنائه.

وهو المسجد الوحيد في هذه القرية؛ إلا أنه يوجد مسجد صغير في المقبرة مخصص في الأصل لصلاة الجنازة قبل الدفن.



مسجد بلدة كندلن

وقد بنوا المسجد هذا بناء قوياً بالإسمنت المسلح، وليس في داخله رغم سعته أي عمود، وتركبه قبة واسعة غير مكتملة التقبيب، وإنما تشبه سنام البعير إلا أنها أقل حدة في الارتفاع.

حضر إلينا الأخ سليمان محمد رئيس جمعية المسجد، والأخ سليمان شبكل المشرف على البناء، ووجدنا بعض العمال المسلمين يعملون فيه، وكل الموجودين فيه هم من إخواننا البلغار الذين يؤلفون الأقلية العددية في هذه البلاد، ويرافقنا في هذه الجولة كلها نائب المفتي الأخ (شرف الدين)، وهو من البلغار، بخلاف المفتي الشيخ (شفيع شخجيف) فإنه من القبرداي الذين هم من الشركس.

ومن الأمور المبهجة في أمره أنهم خصصوا أرضاً تقع جهة الغرب من المسجد لتكون مدرسة إسلامية، فشكرناهم على ذلك وشجعناهم على إتمامها، وأخبرناهم أننا سنساعدهم على بنائها من رابطة العالم الإسلامي، ثم نقدم إليهم مساعده فنية بعد إكمالها إن شاء الله.

ومن التغيرات السياسية الظاهرة في حال هذه البلاد أنها كانت مغلقة دون الزوار الأجانب، فكان من الممنوع عليهم أن يزوروها، وذلك لوجود دراسات تدل على أن فيها معادن مهمة، ولكنها الآن فتحت مثل أكثر البلدان والقرى في أنحاء الاتحاد السوفييتي السابق.

ثم حضر الإمام (شمس الدين حمزت) رئيس أئمة القرى المجاورة، وذكر مثلما ذكر الإخوة قبله أن سكان القرية كلهم مسلمون من قومية البلغار، ويبلغ عددهم ١٢٥٠ أسرة.



تذكارية عند المسجد (تحت الإنشاء) في قرية كندلن

ريعان القوقاز:

ودعنا أهل قرية (كندلن) الكرام بعد أن بحثنا معهم في كل ما يتعلق بأمور دينهم، ووعدناهم بأننا سوف ندفع لهم مساعدات مالية عاجلة غداً تساعدهم على إكمال بناء المسجد، وعلى البدء بالبناء للمدرسة.

وانطلقنا مع الطريق الذي حسنت حاله، فصار الزفت فيه جيداً، وقد قاربت الساعة الخامسة من بعد الظهر.

وكما حسنت حال الطريق حسنت أيضاً المناظر المحيطة به من

جبال قوقازية ذات سفوح طينية خصبة، إلا أن الطريق ضاق إذ صارت الجبال تضيق حوله في بعض الأحيان، حتى صار (ريعاناً)، وهي جمع ريع بمعنى الفج أو الطريق بين جبلين.



الحواجز على المهاوي في الطريق بعد بلدة كندلن

ومع أننا قد بعدنا عن مدينة (باخسان) الآن ٣٧ كيلومتراً، فإن نهراً متدفقاً بالمياه رأيناه يحاذي الطريق مرة ويجافيه أخرى يسمى (نهر باخسان) لأنه الذي يذهب إليها، وكأنما هو يسرع في الذهاب إلى قراره في مياه بحر الخزر (قزوين) قادماً من مرتفعات القوقاز.

وكان الجو صاحياً، بل شامساً، ذكروا أن هذا خلاف ما كان عليه الحال قبل ثلاثة أيام إذ كان الجو ماطراً مكفهراً.

قالوا: واليوم وأمس صحو وحر يدل عندهم على قرب نزول المطر الليلة، وسألت الله تعالى أن لا يبتلينا فيبلنا بالمطر الذي يكدر علينا مهمتنا، إذ لا نستطيع معه الكتابة، ولا تصوير الأشياء البعيدة إذا كان الجو ماطراً أو مظلماً.

ثم وصلنا فجاجاً بين جبال واقفة تماماً تكاد تلتصق فيما بينها لولا وجود النهر المتدفق، والطريق المعبد، ولا شيء معها في هذه الفجاج الضيقة، أو لنقل إنها الريعان الشديدة الضيق.



الروابي الخضر في جبال القوقاز في وديانها العمارة والزراعة (تصوير المؤلف)

لأن المنظر كان جميلاً حقاً، فخضرة الجبال بالغة تكاد تتلاقى

وهي ترتفع إلى عنان السماء، وقد وصل الضيق ببعض هذه الفجاج إلى درجة أنهم حفروا الطريق حفراً في أصل الجبل، لأن الوادي الضيق ليست فيه فسحة لغير مجرى النهر الضيق.

وقد وضعوا حواجز على الطريق مما يلي الوادي الذي يسير النهر في قراره حذراً من تدهور السيارات في حالة الخطأ، أو الخلل في السيارة، وهي حواجز إسمنتية قوية.

وقابلتنا عدة سيارات، بعضها فيها سياح أوروبيون من القادمين من جبل (إبل روس) الذي فيه أعلى قمة جبلية في أوروبا.

بلدة بلم:

اتسع الوادي القوقازي قليلاً، ثم زاد اتساعه، ووصلنا إلى قرية اسمها (بلم) أهلها من المسلمين البلغار، وظهر أن القرية أقل خصباً من سابقاتها، وأكثر حراً، وربما كان مبعث الحر فيها أنها واقعة بين هضاب عالية من هذه الجبال الشاهقة، وقال لنا أهلها: إننا بعد هذا الحر نتوقع مطراً، ولكن الجو كان صافياً خالياً من السحاب، والشمس حارة حرارة لا تقل عن مثيلاتها في بلادنا في الخريف.

ولاحظت انه لا توجد ملابس وطنية على الناس تميز القبرداي من القرتشاي مثلاً، وإنما الجميع يلبسون اللباس الإفرنجي المعتاد.

ومن المناظر اللافتة للنظر في القرية أشجار من أشجار الكرز محملة بالثمار، ودجاج كبير الحجم في الشارع، ونساء كالإفرنجيات في اللون، ولكنهن لسن كذلك في اللباس والتستر، فهن من المسلمات

الفلاحات، وأطفال شقر في هذا الجو الحار، وقد لوحت الشمس وجوههم فزادتها حمرة.



الشارع الرئيسي في بلدة بلم

تركنا الوادي الذي يقع جزء صغير من بيوت القرية عليه إلى القرية التي هي داخله في جوف وادٍ آخر مرتفع، ولاحظت أن أسوار بيوت القرية هي من الآجر الأبيض، أما البيوت نفسها فإنها حسنة المظهر إلا أن حالة الشارع ليست على المستوى المطلوب في الحسن، فوسطه مزفلت ولكنه لا أرصفة فيه، وإنما مكانها ترابي مهمل إلا أن بعض الأعشاب نبتت فيه فحسنت من منظره.

مسجد بلم:

سرنا مع شارع القرية الطويل حتى وقفنا عند مسجد القرية الذي أنشؤوه، ولم ينتصف مبناه بعد، وقد صبوا أساساته، ورفعوا بناءه إلى قرب قامة الرجل، بنوه بالخرسانة القوية المسلحة على ضعف إمكاناتهم، وضيق ذات اليد عندهم.

ذكروا أنهم بدؤوا بعمارة المسجد في ٣١ مايو من هذا العام الميلادي ١٩٩٣.

ووجدنا عنده الشيخ (ذو القرنين بن مراد)، وعندما رأيته لم أصدق عيني، فهذا الرجل قابلته منذ أشهر في مكان ناء عن هذه المنطقة، وإن كان داخلاً في الاتحاد السوفييتي السابق، إلا أنه الآن انفصل عنه من الناحية الشكلية، وهو مدينة (ميركى) في جمهورية قازاقستان، لكنه في جنوبها غير البعيد من حدودها مع جمهوريتي (أوزبكستان) و (قرغيزستان).

رأيت الشيخ (ذو القرنين بن مراد) في مدينة ميركى، وكنت في ذلك على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي ذاهبين من عاصمة اوزبكستان (طشقند) إلى عاصمة قرغيزستان (بشكك) بطريق البر لكون الطيران كان توقف بينهما لعدة أيام بسبب النقص في إمدادات وقود الطائرات بعد أن استقلت الجمهوريتان، وانفصلتا عن الاتحاد السوفييتي.



مسجد بلم (تحت الإنشاء)

وكان يومها إماماً لجامع (مريكا)، ومديراً للمعهد الإسلامي الذي رأيناه من أنجح المعاهد في تلك المنطقة، حتى إن فيه طلاباً من مسلمي جمهورية منغوليا التي كانت تسمى منغوليا الخارجية، ثم سميت (منغوليا الشعبية) عندما أصبحت شيوعية، والآن عادت (منغوليا) مجردة من أي وصف أو لقب، وقد ذكرت أمر تلك الرحلة في كتاب: « حديث قازاقستان » ، وقد شكا الشيخ ذو القرنين من أنه ينتظر أن يعزله مدير الإدارة الدينية في (قازاقستان) الشيخ (راتب بيك) لخلاف بينهما، فاتفقنا معه على أن يذهب إلى منغوليا لإرشاد المسلمين هناك على نفقة رابطة العالم الإسلامي؛ لأن المسلمين في منغوليا قد

فقدوا كل مقومات دينهم حتى المساجد لم يبق لديهم مسجد في طول البلاد وعرضها، إذ هدمها الشيوعيون، وعندما أدبرت الشيوعية بدؤوا ببناء مساجد جديدة، وقد ذكرت حالهم وما شاهدته في منغوليا وسيبريا قبلها في كتاب: « في شمال شرق آسيا ».

وقد فوجئت حين وجدت الشيخ (ذو القرنين) هنا، فقد عزله مفتي قازاقستان بالفعل، ولكنه جاء إلى هذه البلاد القوقازية ليعمل في قرية (بلم) المنزوية في إحدى الفجاج القوقازية بعيداً عن أعين الزوار الذين يزورون العاصمة، والله تعالى معبود في كل مكان، قال تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾.

لذلك لم أكد أصدق عندما رأيته، ولكن زميلنا في هذه الرحلة الأستاذ رحمة الله بن عناية الله كان معنا في الرحلة المذكورة فعرفه أيضاً.

المدرسة الإسلامية:

نفع الله أهل قرية (بلم) القوقازية هذه بالشيخ (ذو القرنين) كما نفع به أهل بلدة (ميركا) القازاقية، فقد افتتح مدرسة هنا، ذهبنا إليها من المسجد سيراً على الأقدام، وفيها قاعة تستعمل مسجداً رأيناه مفروشاً بفراش جيد، وفصول المدرسة جيدة، وعلمنا أنها تقدم وجبات غذائية للطلبة الغرباء الذين يدرسون، ذكروا أنها ثلاث وجبات في اليوم والليلة.

حدثنا الشيخ ذو القرنين عن العمل هذه القرية مقارنة بحال

المسلمين في قازاقستان، قال: إن الناس هناك - يريد في ما وراء النهر من أوزبكستان وجنوب قازقستان - عندهم أساس الدين، وأما هؤلاء الإخوة فإنهم مبتدئون في تعلم الدين.



نساء وأطفال شقر مسلمون في قرية بلم

وقال: قبل مجيئي لم يكن أحد يؤذن للصلاة، والآن نحن نصدح بالأذان من المكبر خمس مرات في اليوم والليلة.

وذكر أن كل الذي رأيناه في المدرسة والمسجد المؤقت هو من التبرعات المحلية، وأنهم لم يتسلموا مساعدة من قبل من خارج البلاد. وقد أخبرناه ومعه بعض أهل القرية أننا سوف نقدم لهم تبرعاً للمسجد من الرابطة إسهاماً في بنائه، وسنسجله عندنا مثلما نفعل بكل المساجد التي نراها، وذلك من أجل أن يكتبوا إلينا في الرابطة إن

احتاجوا إلى نقود لإتمامه.

كما أعطيناه مساعدة شخصية لتفرغه للعمل الإسلامي وإجادته العمل فيه جزاه الله خيراً.

ومما يجدر ذكره أن أهل القرية هم من البلغار الذين يتكلمون لغة متفرعة من التركية، والشيخ نفسه يتكلم لغة قازاقستان، ولغة أوزبكستان، وكلتاهما متفرعتان من التركية القديمة التي يقال لها الجغتاوية، لذلك سهل عليه التفاهم معهم وتعليمهم، ولا يستطيع ذلك مع الأكثرية من المسلمين في هذه الجمهورية الذين يقال لهم (القبرداي) لأنهم من الشركس الذين يتكلمون اللغة الشركسية، إحدى اللغات القوقازية المستقلة الصعبة.

وقد مدح الشيخ ذو القرنين أهل هذه القرية (بلم)، وقال: هم متمسكون بالإسلام، وقد حج منهم ٣٢ شخصاً، وقد جمعوا من التبرعات لبناء المسجد خمسة ملايين روبل، أنفقوا منها حتى الآن مليونين، ومما يجدر ذكره أن مليون روبل تساوي ألف دولار أمريكية.

إلى مدينة ترناوس:

ودعنا أهل بلدة أو لنقل: قرية (بلم)، ولم نودع الأخ (ذو القرنين بن مراد)، وإنما ركب معنا لكي يرشدنا إلى بيت أحد الإخوة الذي ذكروا عنه أنه إمام في أربع قرى تابعة لمدينة (ترناوس).

وعاودنا السير مع فجاج القوقاز وريعانها - جمع ريع - وهو الطريق بين الجبلين، حتى وصلنا حياً ذكروا لنا أول الأمر أنه قرية

مستقلة، وقالوا أخيراً إنه متصل بترناوس، والحقيقة أنه بعيد عن وسطها كما رأينا ذلك في ما بعد.



تطل الجبال الخضر الواقفة على القرى في بلاد القوقاز

دخلنا وسط هذا الحي أو القرية، فألفينا شارعها العام في غاية السوء، فليس فيه إسفلت، وإنما هو التراب الذي يتطاير إذا أثارته عجلات السيارة، وهو وسخ جداً، بمعنى أنه لم يعرف التنظيف، أو أن البلدية لا تعرفه، وفيه مع ذلك حفر من فعل مياه الأمطار لم تجد من يصلحها، وجدران بعض البيوت عليه من الخشب الرث غير المعتنى به.

وتسرح فيه ماعز ذات ألوان بيض تضاف أرواثها وأرواث حيوانات

أخرى مثلها إلى ارض هذا الشارع فتزيده سوءاً على سوء.



شارع في الحي الذي وصلنا إليه أول الأمر في مدينة ترناوس تطل عليه قمة (إبل روس) أعلى قمم القوقاز

ومع حال هذا الشارع غير السارة، فإنني التقطت له صورة، وقمة جبل (إبل روس) الشامخة أعلى قمم أوروبا كلها تغلق النظر فيه من جهة الجنوب الغربي، وتبدو للناظر لولا عدم وضوحها لارتفاعها كأنها السحاب الشامخ، وتتوجها قمة عالية من الثلج الأزلي الذي لا يذوب صيفاً ولا شتاء.

ومع أنه يخيل للمرء إذا رأى هذه القمة من القرية أو الضاحية أنها قريبة، فقد ذكروا أنها تبعد عنها ٤٠ كيلو متراً.

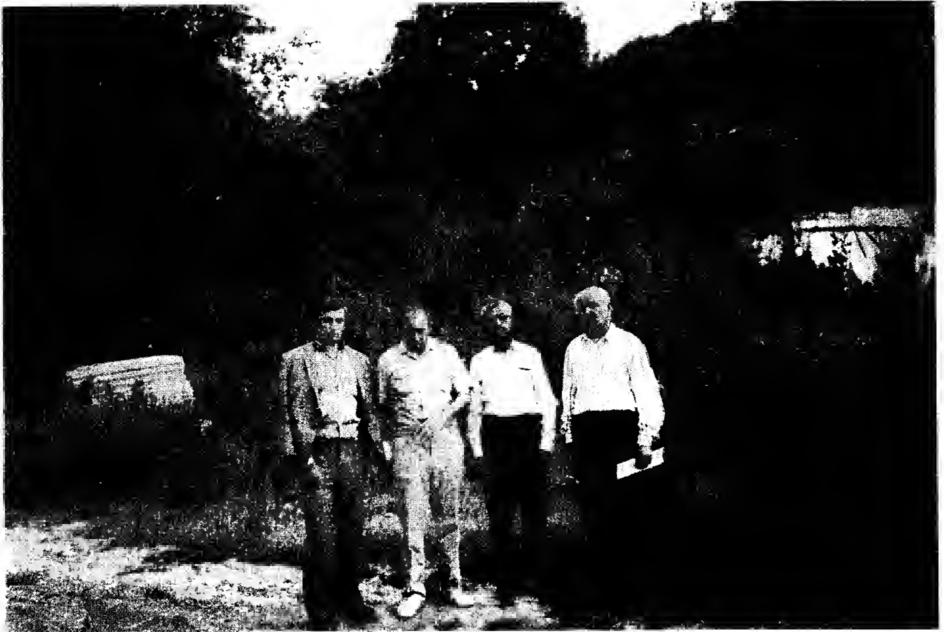
إسرائيل وذو القرنين:

وقفنا في شارع آخر مجاور للشارع الذي ذكرته في القرية، فطرق ذو القرنين باب أحد البيوت، فخرج منه أخ مسلم كريم، أشقر اللون، أزرق العينين، حتى يبدو من شكله أنه كسكان البلدان الشمالية مع أنه مسلم بن مسلم.

وقال الشيخ ذو القرنين مداعباً وهو يوجه كلامه إلينا: إنه بنو أسرائيل

فقلت له: وأنت ذو القرنين !.

وربما لم يفهم مغزى كلامي؛ لأن اسمه (ذو القرنين) مألوف لديه، فهو يتندر من هذا الأخ المسلم بأن اسمه (إسرائيل بن حسين).



تذكارية مع الرفقة في أحد الأماكن الخصبة في الطريق إلى مدينة ترناوس



سلم علينا الأخ (إسرائيل)، وفرحنا بأن إسرائيل سيصحبنا مع ذي القرنين، وهم يقولون له (ذو القرنين) في جميع الحالات، ونحن لا نريد أن نغيره، لأنه عَلَم عليه، والأعلام لا تغير، ولكننا فعلنا خلاف ذلك لمقارنته بإسرائيل: اسم هذا الأخ المسلم الملتزم.

رأينا الأخ إسرائيل رجلاً قد وصل إلى سن الكهولة، ولكنه نشيط البدن حتى يبدو - لولا شعره الأبيض - في سن الشباب، إضافة إلى ذلك أنه مرح خفيف الظل، ولذلك داعبه الأخ (ذو القرنين) بقوله: إنه (بنو إسرائيل).

وعرفونا عليه بأنه إمام قرى أربع من قرى (ترناوس) أو ضواحيها.

مدينة تِرْناوس:

لم نضع وقتاً في هذه القرية القريبة من (ترناوس)، وإنما أسرعنا بالذهاب إلى المدينة نفسها، والإخوة يحدثوننا عن أحوال المسلمين، وبخاصة الأخ (ذو القرنين) الذي يعرف العربية معرفة متوسطة، ولكنه يستطيع التفاهم بها بخلاف الأخ (إسرائيل) فأنه لا يعرف منها إلا ما يتصل بالعبادات، أو العبارات الدينية.

أول ما رأيناه من مدينة ترناوس أبنية متعددة الطوابق تتألف من شقق سكنية من التي تبنيها الحكومة لإسكان مواطنيها، وسبق ذكر أمثالها، ثم شارع رئيسي فيها تتعانق فيه الأشجار التي غرست على جانبيه، وذلك لارتفاع الأشجار، وضيق الشارع.

وأهم من ذلك أنها واقعة في جبال عالية واقفة من جبال

القوقاز التي تتوج قممها الثلوج الأزلية، حتى لتخاف على أهلها أن تطبق عليهم هذه الجبال الواقفة، لأنها في الحقيقة تحيط بها من أكثر جهاتها.

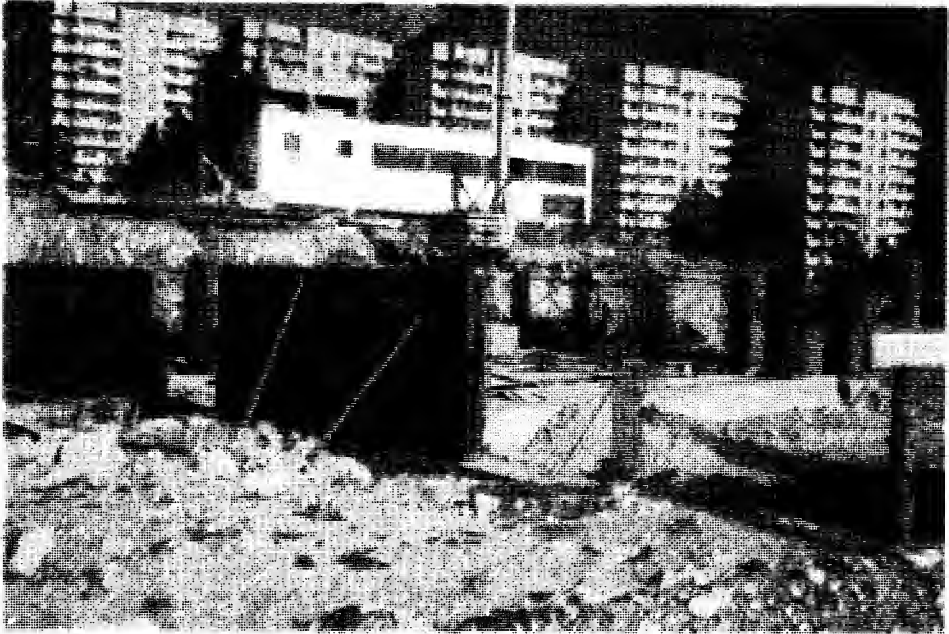
ولكن موقعها من هذه الجبال زادها مزية، بل مزايا، فرغم كون بعض الجبال التي تطوقها لا يذوب الثلج عن قممها أبد الدهر، فإنها مع الجبال الأخرى قد حمتها من الرياح الجبلية الباردة في الشتاء، ولشيء آخر، وهي أنها ترسل نهيرات من ذوب الثلج في الربيع والصيف، وبعضها قد شكل نهراً صغيراً يجري وسط المدينة.



المؤلف في ضاحية في ترناوس

وقفنا على جسر فوق نهرها على شارع مستطيل اسمه شارع (إبل روس) على أسم أعلى قمة في أوروبا، أو لنقل: إنها قمة القمم الجبلية في أوروبا، وهي أقرب إلى هذه المدينة (ترناوس) من أية مدينة أخرى.

وسرنا بل أثلج صدورنا أن رأيناهم يعملون بجد في إقامة المسجد، وقد حفروا حفراً عميقة في الأرض، وضعوا فيها الأساسات الضخمة من الإسمنت المسلح القوي على هيئة قطع ضخمة كأنها حجارة هذه الجبال العاتية.



مسجد ترناوس يبنى قرب العمائر السكنية

ومع هذا الاستعداد الضخم رأينا العمل قد توقف فيه، وأخبرنا الشيخ إسرائيل بن حسين، وهو متولي المسجد، أي رئيس الجمعية التي

تقوم عليه، أن العمل متوقف الآن في بناء المسجد لقصور النفقة، إلا أن تاجراً من تجار المنطقة، ويعمل في التجارة في تركيا وموسكو قد وعد بالمساعدة على إتمام المسجد، وقد خصصنا له مبلغاً من المال يكفي للعمل بعض الوقت.

وقد صمموا بناءه تصميماً ممتازاً مكلفاً، ومن ذلك أنهم قرروا أن ترتفع منارته ٤٩ متراً، وبذلك ستكون أكثر الأبنية ارتفاعاً في تلك المنطقة ما عدا الأبنية متعددة الطوابق التي بنيت على أماكن مرتفعة في الأصل، لأن المدينة الأصيلة، أو لنقل قلب المدينة قد بني فيما يشبه الوادي بين الجبال.



مع الأخ إسرائيل في مسجد ترناوس (تحت التأسيس)

ومدينـة (ترنـاوس) هـي مدينـة سـياحية بسـبب قربهـا مـن قمـة (إبـل روس) وغيرها، وتبعد عن نالجيك العاصمة ٨٢ كيلو متراً.

وتقطـن فيـها جماعـات مـن المسـلمين مـن الشركـس والبلغـار وغيرهم.

وبعد الانتهاء من رؤية المسجد، والحديث مع الإخوة المسلمين فيما يتعلق بأمورهم، ذهبت أتمشى مع بعض الإخوة في شوارع هذه المدينة، ومن ذلك ميدان غير بعيد من المسجد، فوجدت باعة في الميدان، مع أنه ليس سوقاً للبيع، وإنما لكونه في وسط المدينة، فرأيت امرأة جالسة على شيء مرتفع أظنه حجراً، وأمامها ملفوف، وهو الكرنب قليل، ذكرت أنها تبيع الكيلو الواحد منه بـ: ٣٠٠ روبل، وكل الذي معها لا يزيد على كيلوين اثنين، وإذاً يكون ثمن بضاعتها يزيد عن نصف الدولار قليلاً فيه الثمن والفائدة.

ورأيـت زحامـاً شديـداً علـى شـيء، فأسـرعت أسـتجلي الأمـر، فوجدتـه علـى رجـل يبيـع المشمـش، والنـاس مزدحمـون يشـترون منـه الكيلو بـ: ٥٠٠ روبل، أي نصف دولار تقريباً.

وبائعـة معـها خيـار، وأخـرى معـها قليـل مـن البطـاطس، مـع أن المفروض أن البطاطس يكون موجوداً بكثرة في فصل الصيف في هذه البلاد.

ورأيت أحد السكارى لا يكـاد يعقـل، وهـو يتعـثر في مشيتـه، فأسـرعت ابتعـد عنـه، ويقـترب هـو مـن الشيـخ (إسـرائيل بـن حسـين) لكونه من أهل البلد، فأخذ يهذي عليه بكلام لا يقوى على الإفصاح

به، والشيخ إسرائيل يتلطف به خوفاً من لسانه، أو من سوء تصرفاته.



السوق الشعبية في ترناوس

وذكروا له أنه من شباب المسلمين الذين حرموا من التربية الإسلامية، وقد أسرع نحوي يسلم عليَّ، فخفت من أذاه، ولكن الأخ (ذو القرنين) أسرع يحدثه ليبعده عني، وهو على حالة رديئة جداً تجعل من يراه، ولو كان لا يحرم الخمر، يحرمها خوفاً من أن تؤول حاله إلى مثل ذلك المنظر الزري.

العودة إلى نالجيك:

من ترناوس بدأنا العودة إلى نالجيك مع الطريق الذي جئنا منه،

ولم نجد فيه ما يستدعي الذكر إلا الشعور بالحر، وشدة حرارة الشمس حتى في مدينة ترناوس التي تشرف عليها القمم الجبلية العالية التي فيها ثلج لا يذوب أبد الدهر.



جبال قوقازية أعاليها جرد في جمهورية قبرداي بلغار (تصوير المؤلف)

ومن الغريب أن الجو في هذه الساعة التي هي ساعة الأصيل، وهي ساعة ما بعد الغروب عندنا، وهي السابعة والنصف، كانت الشمس حارة، شعرنا كلنا بأن حرارتها تحدث صداع الرأس، ولاحظنا أن الفلاحين أكثرهم يرتدون لباساً نظيفاً لا يبعد كثيراً عن لباس أهل المدينة، إلا ما كان من أمر الكهول والمسنين، فإنهم

يتمسكون باللباس القديم الثقيل حتى في هذا الصيف، وقالوا لنا عندما أبدينا لهم أننا نغبطهم بوجود هذا النهر المتدفق في هذا الريف أجابوا بأن أهل الريف هؤلاء لا يحتاجون إلى النهر، فهم لا يستفيدون من مائه لكثرة الأمطار في الصيف الذي هو فصل الزراعة والإنتاج الزراعي.

ووصلنا نالجيك بعد الثامنة مساء، وما تزال في الجو بقية صالحة من نور.

أرض المركز الإسلامي:

وقفنا على أرض واسعة فيها بقايا من بيوت قديمة منحتها الحكومة للإدارة الدينية في هذه البلاد لتقيم عليها مركزاً إسلامياً متكاملاً.

وتقع في ناحية من قلب المدينة المهم على شارع سو فيتسكايا، وتبلغ مساحتها ١٠٠ متر في ١٠٠ متر، فهي كبيرة بالنسبة إلى وسط المدينة، وأرونا المخطط الذي وضعوه لهذا المركز الإسلامي، وأهم ما فيه أنهم قرروا أن ترتفع منارة الجامع الذي سيقام فيه ٧٠ متراً، هكذا قالوا، ونسأل الله تعالى أن يبلغهم أملهم في ذلك، وقد جلبوا الآن قطعاً ضخمة من الخرسانة الجاهزة لوضعها في الأساسات.

ومما سرنا أنهم أخبرونا أنهم جمعوا حتى الآن ٢٠ مليون روبل، ويساوي ذلك ٢٠ ألف دولار، لهذا الغرض، ووعدتهم الحكومة بأن تمنحهم ٧٥ مليون روبل، أي ٧٥ ألف دولار، مع أن جميع تكلفة

المركز تبلغ حسبما هو مقدر مليون دولار.

فشجعناهم على سرعة البدء في المشروع لا سيما أن لديهم رصيداً لا بأس به من المال، وسوف نسهم الآن بدفع شيء من الرابطة يضاف إلى ما لديهم، كما أننا نعدهم أنهم إذا أنفقوا كل ما لديهم، واحتاجوا إلى المزيد، فإن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة سوف ترسل لهم مساعدة مناسبة، وسوف نكون نحن على علم بالمشروع، فلا يحتاج إلى إجراء الأمور الأخرى المعتادة التي تؤخر الصرف على المشروعات، مثل الكتابة للجهات الموثوق بها في المنطقة التي يقع فيها المشروع، ومدى أهميته، لأن هذا كله معروف لدينا.



شارع ڤاڤارين في نالجيك



وسرّنا أن أخبرونا أنهم قد قرروا البدء بالعمل بعد شهر، وأنه لولا وجود بعض الأمور القانونية الخاصة بتملك بعض البيوت الواقعة في الأرض لكانوا قد بدؤوا بالفعل.

ومن ذلك أن بيتاً من البيوت المقرر أن تدخل في المسجد لا يزال مسكوناً فيه أسرة، ذكروا أنهم يسعون لدى الدولة لتعويضها عنه بسكن مناسب في مكان آخر.

وكنا نسير في أرض المسجد، ونحن لا نكاد نسير إلا من طريق خاص ضيق بسبب التفاف الأعشاب الوحشية التي لم تزرع، وارتفاعها الذي يزيد على قامة الرجل.

ومما يذكر أنهم قد خططوا للمركز أن يكون من أربع طبقات، ويكون فيها مسجد جامع، ومدرسة إسلامية، ومكتبة حافلة، ومقر مناسب للإدارة الدينية.

تسليم المساعدات المالية:

عقدنا اجتماعاً في التاسعة والنصف في الإدارة الدينية حيث حضر المفتي، ونائبه، والأخ (شوقي بلاغ)، وهو الأخ السوري الشركسي الذي نفعتنا صحبته جزاه الله خيراً، فكان يترجم لنا من الشركسية، ويفيدنا بما لا نعرفه من أمر هذه البلاد، وقد حضر بعض أهل المساجد الذي وعدناهم بالمساعدة، فسلمناهم ما قررناه لهم، وذلك بحضور المفتي رئيس الإدارة الدينية (الشيخ شفيع) وبتصديقه، وكنا طلبنا أن يحضر من كل جهة اثنان أو ثلاثة من

أهلها من باب التوثيق، ومن أجل أن تتابع الإدارة الدينية أعمالهم، وإذا احتاجوا إلى المزيد من المساعدة من رابطة العالم الإسلامي كتبوا ذلك بوساطة الإدارة الدينية التي تكتب تقريراً لما أنجزوه، وتقترح على بينة ما يحتاجون إليه لإكمال العمل في المشروع.

وفي العاشرة والنصف ذهبنا إلى فندق نالجيك، فتعشينا فيه العشاء المعتاد الذي عماده السمك النهري، وذلك لكوننا لا نثق بذبحهم، فلا نأكل اللحم، وهكذا قال لنا إخواننا من أهل البلاد أنهم لا يأكلون من اللحم الذي تبيعه الحكومة وتطبخه في مطاعمها، لأنه ليس مذبوحاً ذبحاً شرعياً.

يوم الخميس ٢٥ /١ /١٤١٤ هـ

النجاح في البكور:

عملنا بهذه الحكمة القديمة، فذهبنا إلى المطعم مبكرين من أجل أن نفطر مع الوجبة الأولى التي تفطر في الثامنة، فوصلناه في الثامنة إلا ربعاً، فوجدنا البوابة موصدة، ولا من مرشد، وفي الثامنة فتحت، فدخلنا مع أناس كثر كانوا منتظرين مثلنا، فوجدناهم قد أعدوا عدتهم لتقديم فطور جيد، كان أهم ما ألفت النظر فيه تلك الأباريق المعدنية الكبيرة المليئة بالقهوة، وقد خلطوها بالحليب هذا اليوم، فيملأ أهل المائدة بأنفسهم أكوابهم أو كاساتهم منها، ثم يأتي أهل المائدة المجاورة فيأخذون الإبريق، ويفعلون مثل فعلهم.

وعلى المائدة خبز وزبد، ثم أحضروا الأرز المطحون مع قطع من اللحم فعفناه، وطلبنا منهم غيره، فجاؤوا ببطاطس مطحون قد أدموه

بالزبد، ثم الأرز المحلى بالسكر وقد أدموه بالسمن، وضعوه في نقرة صغيرة في وسط الصحن.

ولم يحضروا الكافيار الثمين، فجاءت إحدى العاملات، وهي من البلغار الذين يتكلمون لغة مشتقة من التركية القديمة كما قدمت، فكلمها زميلنا الأستاذ رحمة الله بالتركية، فذكرت له أنهم قد أعدوا إفطارنا في التاسعة على اعتبار أننا سنأتي في ذلك الوقت، أما هذا الطعام الذي قدموه لكم فإنه المعتاد في المطعم إلا ما كان من تغيير الطعام فإنه بناء على طلبكم.

وقالت: إن المعلومات التي لدينا عنكم أن فطوركم يجب أن يعد في التاسعة، وغداءكم في الثانية، وعشاءكم في السابعة، مع العلم بأننا لم نتناول في المطعم غير الفطور لأن ارتباطاتنا كانت تمنعنا من ذلك.

وهذا المطعم محدد المواعيد، فإذا تخلف النزيل عن الحضور في الموعد المحدد لم يجد طعاماً.

إلى منطقة الحسنية:

والحسنية ضاحية من ضواحي مدينة (نالجيك) تتميز بوقوعها في مكان مرتفع يطل على المدينة، لأنه فوق تلة جبلية.

ذهبنا إليها مع الأخ نائب المفتي، وهو من البلغار، فاخترقنا ضاحية حسنة، وهي التي تقع بقرب السنتوري أو المنتجع الصحي الذي نسكن فيه، ثم تجاوزناها إلى أحياء ذات شوارع سيئة، وبخاصة ما

يتعلق بإزفلت الشوارع الذي رأيناه متكسراً مليئاً بالحفر والنقر، ولا أثر للإصلاح، أو حتى محاولة إصلاح ما خرب منه.

ورأينا عربة من عربات الحبال الكهربائية (تلفريك) تنطلق من ضاحية في المدينة، فتعلوا فوق هذا المكان إلى أن تصل إلى قمة جبلية تشرف على المدينة، ولكنهم أخبرونا أنها متوقفة الآن مثل أشياء كثيرة في هذه البلاد التي كانت شيوعية، فهجرت الشيوعية، ولم تدرك غنى الرأسمالية، فصارت في منزلة بين منزلتين كما يقولون.



المسجد المؤقت في الحسنية قرب نالجيك وبجانبه الخرسانة المسلحة للمسجد الجديد

صعدنا إلى التلة الجبلية التي تقع فيها ضاحية الحسنية، وعجبنا

لاتساع ضواحي المدينة، فأخبرونا أن نصف سكان جمهورية (قبرداي بلغار) تقريباً يقطنون العاصمة (نالجيك) إذ يبلغ عدد سكانها ٤٠٠ ألف من مجموع سكان الجمهورية الذي يناهز عددهم المليون الواحد.

ومما يسرّ النفس أن نسبة المسلمين فيهم تصل إلى ٧٠ ٪، فهم الجمهورية النادرة في هذه البلاد القوقازية التي احتفظ المسلمون فيها بالأغلبية، أما الجمهوريات الأخرى فإن غير المسلمين من الروس والأوكرانيين والروس البيض وغيرهم حلوا سكاناً فيها، وكاثروا أهلها المسلمين حتى كثروهم.

ومع هذا الاتساع في المدينة، فان المرء منا يصدم عندما يرى حالة الشوارع والطرق، وعدم التنظيم في الأحياء، والغريب أن أهل البلاد لا يشكون من ذلك لأمرين: أولهما أنهم لم يجربوا ما جربناه في بلادنا وغيرها من البلدان ذات الاقتصاد الحر من وجود المرافق الجيدة، والصيانة المستمرة في الطرق والشوارع. والثاني: أنهم إذا قارنوا ما هم عليه بعد ذهاب الشيوعية بما كانوا عليه في زمن الشيوعية، فإنهم يفضلون هذه الحالة التي هم عليها بما فيها من سيئات على العهد الشيوعي السابق بما فيه مما يعده أهله الشيوعيون من حسنات.

المدرسة الحسنية:

استكملنا صعود التلة إلى كتف متسع من أكتافها، تطل عليه قمة جبلية غير بعيدة، فوقفنا عند مبنى ذي مظهر إسلامي من حيث طراز البناء هو المدرسة (الحسنية).



المؤلف عند المدرسة الحسنية في ضواحي نالجيك

ووجدنا عندها الأخ الحاج (حسين بن إسلام)، وهو من إخواننا العاملين، بل المجاهدين في هذه البلاد، فقد حج في العام الماضي، والحج مما ينوه به هنا لقلة الحجاج في العهد الشيوعي، بل لانعدام الحج إلا لبعثة رسمية تؤلف في العادة من بضعة عشر شخصاً كثيراً ما يكونون ممن تكرر حجهم، لأنهم من الرسميين الذين هم رجال الإدارات الدينية في عهد الاتحاد السوفيتي.

ومن أبرز أعمال الأخ، بل الجندي المجهول عند أكثر الناس (حسين بن إسلام) أنه بنى هذا المدرسة الحسنية بناء إسمنتياً قوياً يسبقه رواق ذو عقود إسلامية المظهر.



وبجانبها مصلى كبير ذكروا كلهم أنه أول مسجد يقام في هذه الضاحية المهمة المسماة بالحسنية، وكذلك المدرسة.

والمدرسة مؤلفة من قاعة كبيرة مؤثثة بشكل جيد، ومن ذلك أن فيها مقاعد خشبية جديدة جيدة، ومع ذلك هي مفروشة بالبسط من أجل أن يجلس عليها من لا تتسع لهم المقاعد من الطلبة.

وهناك أثاث جيد آخر في هذه المدرسة، وهو من الأشياء النادرة في هذه البلاد مثل جهاز تسجيل تعليمي كبير، ورسوم وإيضاحات بيانية، ولوحات بالعربية.

ومن المفرح أنهم أخبرونا أن مجموع تلاميذ المدرسة يبلغ (٣٥٠) يأتون إليها على ثلاث دفعات، لكون المكان لا يتسع لهم كلهم، ولكون بعضهم لا تمكنهم ظروفهم من المجيء في وقت واحد.

والمدرسة قائمة على التبرعات، لأن الأخ حسين بن إسلام متفرغ للعمل فيها.

وأما المصلى الحالي فإنه واسع مفروش بسجاد جيد، ومن طريف ما أخبرنا به الأخ حسين أنه يقيم مأدبة إفطار وعشاء ضخمة في اليوم السابع عشر من رمضان للذين يصلون التراويح في هذا المصلى الذي ضاق بالمصلين.

مسجد الحسنية:

بدؤوا ببناء مسجد كبير حديث على أرض واسعة حصلوا عليها من الحكومة غير بعيدة من مقر المدرسة، والمصلى الذي ذكروا أنهم

سيضيفونه للمدرسة الإسلامية عندما يتم العمل في المسجد ويصبحون في غير حاجة إليه في الصلاة.

رأيناهم صبوا قواعد الأساس للمسجد، وهو أساس قوي، لا شك في أنه أقوى من الأساسات التي نضعها للمساجد في بلادنا، وقد بسطوا أمامنا خرائط المسجد، وكلهم أمل وثقة بأنه سوف ينتهي حسبما قرروه، وإن كانوا الآن لا يملكون المال اللازم لذلك.

وقد حضر معه محاسب المسجد الجديد، والأخ (حسين إسلام) هو متولي المسجد، أي رئيس الجمعية التي تشرف على بنائه.



مع الأخ الحاج حسين بن إسلام في مكتبه في الحسنية غرب نالجيك

ومن المفرح السار أن لافتة هذه المدرسة الإسلامية المسماة بالحسنية ظلت تطالعنا، وهي مكتوبة بالعربية: (نالتشيك. المدرسة الحسنية).

كان الجو جميلاً والهواء عليلاً في هذا اليوم الربيعي لنا، وهو صيفي لهم، لأن صيفهم بمثابة الربيع لنا، سواء في درجة حرارته وبرودته، أم في كثرة المطر الذي ينزل فيه، والمكان مرتفع يطل على أجزاء كبيرة من مدينة (نالجيك).

ثم أخذونا إلى مقبرة أسسوها حديثاً يدفن فيها المسلمون، وهي مثل غيرها من مقابر المسلمين الحديثة قد رفعوا شواهد القبور فيها دون أن يرفعوا القبور نفسها، وقد أخبرونا أن وضع الصور قلّ الآن بعد أن أخبرهم المشايخ في الإدارة الدينية أنه لا ينبغي.

ومن الطريف أننا عندما تطرق الحديث معهم إلى سوء حالة الطرق قالوا لنا: هذه الطرق سوفيتية، كأن لفظ السوفيتي صار مثالاً الآن على سوء الإدارة وعدم العناية.

اللقاء بوزير الخارجية:

كان الشيخ المفتي شفيع (شخجيف) قد أخبرني أن الحكومة المحلية تفضل الاجتماع بنا، وقال: إنهم الذين طلبوا ذلك عندما أخبرتهم بقدومك. وكان قال لنا أمس: إن رئيس الجمهورية غائب، ونائبه مشغول، وأكبر المسئولين رتبة الآن هو وزير الخارجية للجمهورية، وسيكون اللقاء به في صباح غد، يقصد هذا اليوم.

خرجنا من الإدارة الدينية مشياً على الأقدام إلى مقر الحكومة،

وبعضهم يسميه البيت الأبيض، وذلك لكونه يضم مجلس النواب، ومقر الحكومة.

اخترقنا في الذهاب إليه غابة مظلمة منسقة من الأشجار الخضر الوارفة الظلال، وقد اعتنوا بهذه المنطقة الحكومية بالتشجير الذي يقل فيه التزهير - غرس الأزهار - لا لكون غرس الأزهار يكلفهم ما لا يطيقون، ولكنه يحتاج إلى عناية ورعاية بخلاف هذه الأشجار الخضر الكثيفة، فإنها تشرب من ضرع السماء، ولا تحتاج منهم إلى كبير عناية.

وكذلك رأيناهم اهتموا بترصيف الشوارع والممرات في هذا المكان الحكومي المهم.

وصلنا المبنى الذي يسمونه القصر الأبيض، وهو فخم المظهر، ذو واجهة مبنية على الطراز الروماني بأعمدته المستديرة الضخمة التي تحمل الرواق الذي يظلل مقدمته، وقد استطالت هذه الأعمدة إلى أعلى المبنى المؤلف من ثلاثة طوابق عالية.

وصلنا المبنى قبيل العاشرة والنصف لأن الموعد هو الساعة العاشرة والنصف، فاستقبلنا فيه رئيس المراسم في وزارة الخارجية بهذه الجمهورية، ويتكلم العربية بطلاقة حتى كأنه أحد أبنائها، وحتى مظهره فإنه ليس أشقر، وإنما هو أبيض بياض العرب الشماليين، نحيف نحافة أبناء الصحراء العربية، قدم لنا نفسه بأنه (سيرجي بوكوف)، ولم أسرع فأحكم في ذهني بأنه غير مسلم من أجل أن اسمه سيرجي، فوزير الخارجية اسمه (أنا تولي ياموزا) ومع أن اسم (أنا

تولي) من أسماء الروس غير المسلمين، فإنه مسلم ابن مسلم، بل هو من أسرة عريقة في إسلامها، ومع ذلك أردت أن أتأكد من كون رئيس المراسم الذي يعرف العربية جيداً مسلماً، فسألته عن لغته الأصلية، وهل لها قرب بالعربية جعله يقبل على تعلمها، فأجاب بالنفي، وقال: إنه أرمني، فعرفت أنه غير مسلم، وتأكد ذلك من غيره، وعرفت منه أنه تعلم العربية في جامعة موسكو (كلية اللغات الأجنبية) مثل كثير من الشبان الروس الذين تعلموا اللغات الأجنبية، ومنها العربية من أجل أن تتاح لهم فرصة مغادرة بلادهم، وزيارة البلاد الأجنبية مع البعثات السياسية، أو الفنية السوفيتية.

صعدنا إلى الطابق الثاني مع درج عريض مفروش بالسجاد الجيد حتى جلسنا في غرفة ملحقة بمكتب وزير الخارجية.

وما أسرع أن دخل وزير الخارجية الأخ (أنا تولي مايوزا) هاشاً باشاً بدأ الكلام بالترحيب بالإنجليزية، ثم قال: إنه مادام أن رئيس المراسم حاضر، وهو يعرف العربية، فإنني سوف أتكلم، وهو يترجم ما أقوله بالعربية.

وكنا قد أخذنا للأمر أهبته، فكان معنا اثنان من الإخوة يستطيعان الترجمة، أحدهما الأخ الأستاذ شوقي بلاغ، ويستطيع أن يترجم من الشركسية التي هي لغة القبرداي إلى اللغة العربية، والثاني هو الشيخ نائب المفتي، وهو من البلغار ويعرف زميلنا في الوفد رحمة الله بن عناية الله لغته، ويستطيع أن يترجم من الروسية للغته، ثم يترجم الأستاذ رحمة الله ما يقوله إلى العربية.



أثناء انعقاد المباحثات مع وزير الخارجية لقبرداي بلغار وهو أمام المؤلف

وبعد تبادل كلمات الترحيب بين الطرفين تحدثت عن الرابطة وأعمالها وأهدافها في خدمة المسلمين وتعزيز تعاونهم الثقافي، وما تقدمه حكومة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز من دعم مادي ومعنوي لنصرة القضايا الإسلامية والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، كما نقلت إليه تحيات الإخوة المسلمين في الأراضي المقدسة والعالم الإسلامي، وشكرت حكومة جمهورية قبرداي بلغار على ما تقدمه من تسهيلات وأراض لإقامة المساجد، ومساهمتها المادية في بناء المركز الإسلامي في نالجيك.



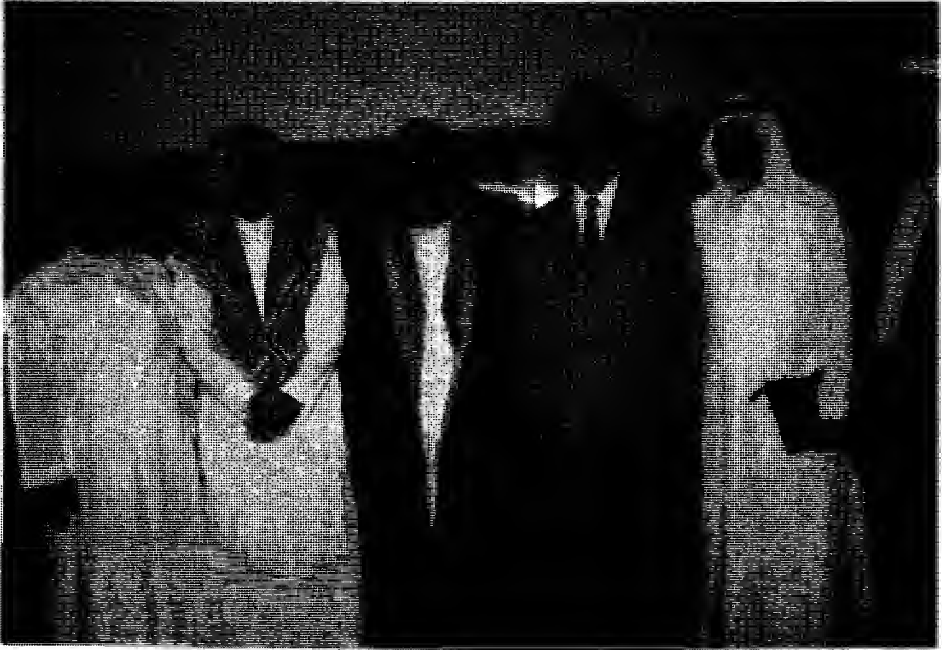
وقد أجابني الوزير بالشكر على ما قدمته من معلومات عن الرابطة، وأعرب عن شكره وشكر حكومة قبرداي بلغار على اهتمام الرابطة، وأكد أن حكومته ستتعاون مع الجهات الإسلامية، وتساعدها على العمل الإسلامي، لأنها تقدر عطاء الدين الروحي في بناء الإنسان ومجتمعه، وأضاف بأن برلمان جمهورية قبرداي بلغار ورئيس جمهوريتها وحكومتها يقدرون أهمية الدين الإسلامي في تربية الجيل الجديد، والإدارة الدينية يتولى شؤونها الشباب، وهم يهتمون بالتعليم وتربية الأجيال القادمة في ظل الإسلام، وعلاقة وزارة الخارجية قوية مع الإدارة الدينية، ومع المفتي شخصياً. وكان في صحبة وزير الخارجية خلال زيارته الرسمية لجمهورية تركيا في شهر آذار الماضي ... ثم أضاف بأنه يبلغ رئيس الحكومة والبرلمان عن أهمية هذه الزيارة، وتمنى أن تتكرر الزيارة ويتم توثيق العلاقات بين الرابطة والإدارة الدينية.

وقال الوزير: أنتم في الحقيقة ضيوف جمهورية (قبرداي بلغار) كلها، ولستم ضيوف الإدارة الدينية وحدها، وقد أبلغت رئيس الجمهورية والبرلمان والوزراء بقدومكم، وسوف أخبرهم بفحوى الأحاديث التي تبادلناها معكم، ونحن متشوقون إلى توثيق العلاقات مع بلادكم بخاصة، ومع بلدان الخليج بعامة.

فقلت له: إن التاريخ يعيد نفسه، ولذلك نحن نرجو أن تعيدوا سيرة أسلافكم العظام في خدمة الإسلام.

وقد أجبته على حديثه القيم، وأبديت استعداد الرابطة لمساعدتها في دعوة المؤسسات التجارية والاقتصادية في المملكة العربية السعودية

ودول الخليج على التعاون مع حكومة قبرداي بلغار في التعامل الاقتصادي، وإنشاء المشاريع الإنمائية والاستثمارات، وختمت حديثي بالشكر على هذه الروح الإسلامية التي يتحلى بها ورجال حكومته مما يبعث الأمل بأن الشعب الشركسي المسلم سيعيد بناء مجده الإسلامي بإذن الله.



تذكارية مع وزير الخارجية لجمهورية قبرداي بلغار في مكتبه في نالجيك في مقر الوزارة

وهكذا كانت زيارة وفد الرابطة مفيدة في جمهورية قبرداي بلغار، وقد شعرنا بأن هناك اتجاهاً حكومياً وشعبياً لإحياء العمل الإسلامي وتشجيعه، والاهتمام بالتعليم الديني، ولكن تدهور

الاقتصاد يجعلهم يحتاجون إلى دعم ومساندة بحيث يجد المسلمون من يعينهم على أمور دينهم.

هذا وقد قدم أثناء الحديث الشاي والمشروبات الغازية، وقدمت له في نهاية المقابلة هدية من رابطة العالم الإسلامي هي مصحف وساعة يدوية، وتمر من تمر المدينة المنورة.

ثم ودعنا إلى الدرج وهو يكرر الشكر والترحيب.

وعند البوابة الخارجية مما يلي الميدان الذي يقع عليه المبنى طلب رئيس المراسم التقاط صورة تذكارية معه، فكانت هذه الصورة:



صورة تذكارية لوفد الرابطة مع رئيس المراسم بوزارة الخارجية على درج المبنى الذي فيه الخارجية في نالجيك

أما الميدان الذي يقع عليه هذا القصر الأبيض فهو رحب جميل لا يكدره إلا رؤية تمثال ضخم لإمام الشيوعيين لينين، وهو ينتصب ليثبت وجود الشيوعية في هذه البلاد المسلمة بلاد الشركس والبلغار.

وتحيط بهذا الميدان الواسع أبنية جميلة مهمة.

العودة للإدارة الدينية:

عدنا إلى الإدارة الدينية سيراً على أقدامنا لإكمال صرف المساعدات المالية التي قررنا صرفها للمساجد التي زرناها في هذه الجمهورية، وقد حضر المسؤولون فسرنا على الطريقة التي أسلفتها في صرف المساعدة أمام المفتي ونائبه وكبار المسؤولين عن العمل الإسلامي.

لا سفر إلى بلاد الأنقوش:

كنا قد أزمعنا السفر من جمهورية قبرداي بلغار هذه إلى جمهورية الشيشان بطريق البر، وذلك لكوني قد أخبرت حكومة الشيشان بذلك، فأبرقت إلى صديقي الشيخ محمد حسين عثمان وزير الشؤون الدينية هناك، ولا تزيد المسافة من نالجيك إلى مدينة غروزني عاصمة بلاد الشيشان على مائتي كيلو متر، ويمكننا أن نمر أيضاً ببلاد الأنقوش، وهم أمة مسلمة لها لغتها المنفصلة، ولكن يجمعها بأهل القوقاز الآخرين جامع الدين الإسلامي الحنيف، غير أننا علمنا أن الطريق الآن إلى غروزني غير آمن، وذلك بسبب ذيول الحرب التي كانت قائمة بين الأوستين والأنقوش.

والأوستين شعب آخر من شعوب القوقاز، وكانت فيهم نسبة لا بأس بها من المسلمين، غير أن بلادهم قسمت إلى قسمين: أوستينا الشمالية، وصارت جمهورية صغيرة ذات حكم ذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية، و(أوستينا) الجنوبية صارت ذات حكم ذاتي داخل جمهورية جورجيا ذات السكان المسيحيين.

غير أن المسلمين يكثرون في أوستينا الجنوبية أكثر مما يكونون في أوستينا الشمالية، وكان طاغية الشيوعية الهالك جوزيف ستالين قد اتهم هو وزملاؤه الشيوعيون الأشرار شعب الأنقوش المسلم بالخيانة لكونه مال مع الألمان ضد الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية، فحكم عليهم بالنفي الجماعي إلى سيبيريا وإلى آسيا الوسطى، وقد أخبرنا الإخوة المسنون الذين عاصروا تلك الأحداث بأن ٤٥ ٪ من شعب الأنقوش المسلم قد ماتوا قبل الوصول إلى المنفى، وذلك لكونهم لم تترك فرصة حتى للتزود بما يحتاجون إليه من طعام وكساء في سفرهم الطويل للمنفى، فكان عتاة الشيوعيين يأتون إليهم في أية ساعة يحددونها من ليل أو نهار، ويأمرونهم بالرحيل فوراً عن ديارهم على القطارات المسافرة إلى تلك الجهات البعيدة والباردة، ومن تهاون أو توانى كان نصيبه الضرب ثم القتل إذا أصر على ذلك.

قالوا: وقد ماتت منهم أعداد في القطارات، فكانوا يضطرون إلى إلقاء الموتى من القطارات، لأن القطار لا يقف لهم لكي يتمكنوا من دفنهم، ولا يستطيعون أن يتركوهم وهم موتى معهم.

وقد كان النفي لهم عاماً شاملاً في عدة مناطق من بلادهم، وقد

حل بعض الروس والأوستين الشماليون محلهم في ديارهم.

وعندما مات ستالين وولّى عهده صدر حكم من السلطة السوفيتية التي يسيطر عليها الروس بإلغاء وصم الخيانة الذي كان قد صدر ضد هؤلاء الإخوة المسلمين الأنقوش، وسمح لمن يريد العودة منهم إلى بلادهم بالعودة.

وقد عادت طوائف منهم إلى منطقة من بلادهم، وألفت لهم مع إخوتهم المسلمين الشيشان جمهورية واحدة هي جمهورية الشيشان والأنقوش، وعاصمتها غروزني.

وبعد أن سقطت الشيوعية، وهبت رياح الحرية على الشعوب المضطهدة داخل الاتحاد السوفيتي، أراد الإخوة الأنقوش العودة إلى ديارهم، والسكن في منازلهم التي كانوا فيها، وقد بناها آباؤهم وأجدادهم، فعارضهم الأوستين الشماليون الذين كانوا قد احتلوها، فحصلت معارك كانت في مجملها اعتداءات على المسلمين الأنقوش لكونهم الأضعف، والجيش الروسي والأوستين الجنوبيون ضدهم، فكانت النتيجة القتل والضرب والتعذيب.

وقد كان الروس يظنون أن الشيشانيين سوف يساعدون الأنقوش، فتكون هذه فرصة لهم أي الروس لكي يتدخلوا بجيشهم، ويضربوا الشيشان انتقاماً من إعلانهم استقلال بلادهم جمهورية الشيشان عن روسيا، ولكن الشيشان أدركوا ذلك ولم يفعلوه، وقد طلب الإخوة الأنقوش انفصال الجزء الذي لهم من بلادهم تابع لجمهورية الشيشان ليكون جمهورية الأنقوش ذات الحكم الذاتي داخل



جمهورية روسيا الاتحادية، وقد تم لهم ذلك بالفعل بطريقة سلمية.

ولكن البلاد الآن لا تزال متوترة وغير آمنة نتيجة لهذه الحروب والاضطرابات، ولذلك خبرنا إخواننا أن كل هذه الجمهوريات الثلاث التي علينا أن نمر بها قبل الدخول إلى مدينة غروزني عاصمة جمهورية الشيشان، وهي أوستينا الشمالية، والأنقوش، وجمهورية الشيشان نفسها كلها غير آمنة لا سيما لأمثالنا الذين هم غرباء، ويحملون أمتعة كبيرة لافتة للنظر، وقلنا فيما بيننا إن معنا مقادير طائلة من المال بالعملة الصعبة التي يتحرق الناس في هذه البلاد للحصول على القليل منها.

لذلك حزمنا أمرنا وعزمنا على الذهاب إلى جمهورية (داغستان) على أمل أن نذهب منها إلى جمهورية الشيشان إذا تيسر ذلك، ولكن كيف السبيل إلى ذلك والطيران قد توقف تقريباً بسبب قلة المسافرين، وإلا فإن في كل عاصمة من العاصمتين: (نالجيك)، و(محج قلعة) عاصمة جمهورية داغستان مطاراً صالحاً لإقلاع الطائرات، وتقوم حافلات بين العاصمتين، ولكنها تبطئ، والأمن فيها لمثلنا غير متوفر.

لذلك قررنا استئجار طائرة خاصة تقلنا من نالجيك إلى (محج قلعة) لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للذهاب إلى داغستان من هذه البلاد المجاورة.

الدجاج الحي:

ذهب الإخوة يبحثون عن طائرة خاصة يستأجرونها لنا، وذهبنا مع



نائب المفتي واثنين من الإخوة إلى مطعم فندق نالجيك، ولم يرد الإخوة أن يقتصر غداؤنا على السمك النهري الذي كان في المطعم، وجاءت به العاملة من دون إبطاء، وإنما أرسلوا يبحثون عن دجاج يباع، يشترونه ثم يذبحونه ويطبخونه لنا ونحن على المائدة، وهذا قصدوا به إكرامنا، وإلا لو استشارونا لأكلنا ما تيسر، ولو كان خبزاً بجبن.

مما ضيع علينا وقتاً وإن كنا مطمئنين إلى أنه لن يفوت علينا شيء، فالطائرة الخاصة قد تم استئجارها وهي في انتظارنا.

ثم انتقلنا إلى (السنتوري) التي ننزل فيها، فاسترحنا قليلاً وحزمنا أمتعتنا، ودفعنا أجرة نزولنا فيه خمسة دولارات لليلة الواحدة؛ أجرة الغرفة ولثلاث وجبات من وجبات الطعام، وإن كنا لم نطعم فيها إلا الفطور، فدفع كل واحد منا عشرة دولارات أمريكية أجرة الليلتين اللتين قضيناهما فيها.

والمراد بذلك أننا دفعنا بالروبل مما يساوي هذا المبلغ إلى خزانة السنتوري، وذلك لكوننا ضيوفاً على جهة معترف بها، وهي الإدارة الدينية، ولولا ذلك لم يسمح لنا بالسكنى في هذه (السنتوري).

محلة برامته :

والتنويه باسم المحلة لن يزيدها تعريفاً في ذهن القارئ الكريم الذي لا يعرفها، ولكن ذلك من كون الإخوة يحاولون أن يوجدوا فيها مسجداً جامعاً عن طريق الحصول على مسرح واسع تملكه الحكومة، ويمكن جعله بقليل من التغيير صالحاً لاتخاذه مسجداً.



وذكروا أن الإجراءات المتعلقة بحصولهم عليه قد قطعت شوطاً بعيداً، وهو مبنى جيد، وفي هذه المحلة (محلة برامته) التي ليس فيها مسجد، فسيكون إذا تم الحصول عليه وتحويله إلى مسجد أول مسجد فيها.

لم نلبث في هذه المحلة، وإنما واصلنا السير في شوارع وسط المدينة حتى وصلنا:

حارة اليهود:

وهي حارة معتادة لا تتميز بجودة أو رداءة، وتعرف بهذا الاسم: (حارة اليهود)، وكان عدد اليهود فيها يبلغ ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة إلى أربعة آلاف نسمة، وقد هاجر منهم أناس إلى فلسطين، وبقي بعضهم. قالوا إن الذين بقوا هم أقل من الذين هاجروا، وذلك لكونهم أتيح لهم الآن مثل غيرهم من الناس هنا فرصة الخروج من البلاد، وفي العادة أن اليهود يعاونون اليهود الآخرين على أن يؤسسوا لهم متاجر، أو حتى حياة جديدة في البلدان التي يهاجرون إليها.

ومما ينبغي التنويه به هنا أن اليهود كثير في بلاد القوقاز نتيجة لتهود ملك من ملوك الخزر، وهم أهل داغستان المجاورة في القديم، وكان هذا الملك قد اعتنق المسيحية، ثم اختلف مع أهل روما، فتحول من النصرانية إلى اليهودية نكاية بهم، ولذلك فإن من المعروف تاريخياً أن يهود القوقاز ليست لهم علاقة نسب باليهود الآخرين، وإنما هي العلاقة الدينية، ونوه الإخوة بأن حارة اليهود هذه لم تعد السكنى فيها قاصرة على اليهود، بل يساكنهم فيها بعض المسلمين.

الخروج للمطار:

قصدنا الطائرة الجاثمة في ساحة وقوف الطائرات، فأوقفنا سياراتنا بجانبها، ولم نقف عند أي مكتب، أو حتى ندخل إلى قاعة الترحيل، وذلك لكوننا ضيوفاً رسميين على الدولة، أو (دبلوماسيين) كما يسموننا، لكوني أحمل جواز سفر (دبلوماسياً)، وكذلك رفيقنا في الوفد الأستاذ (حسن أزمرلي)، ولكوننا وحدنا سنركب في هذه الطائرة التي استأجرناها لا يشاركنا في ركوبها راكب آخر.

وكان في توديعنا الإخوة الكرام أهل (نالجيك) على رأسهم الشيخ شفيع، ونائبه، والأستاذ شوقي بلاغ وآخرون، وجعلنا ندفع لهم أجرة الطائرة مليوناً من الروبلات الروسية، وهو مبلغ ضخم في هذه البلاد التي كانت قد ابتليت بالشيوعية، فخربت نظامها الاقتصادي، ثم ابتليت بسوء التدبير في الخروج من الشيوعية إلى الاقتصاد الحر، وإلا فإن المبلغ هو ألف دولار أمريكي أجرة لطائرة نفاثة صغيرة ذات ثلاثة محركات نفاثة من طراز (ياك ٤٠).

وتذكرت عندما رأيتها أنني سبق أن ركبت على مثلها (ياك ٤٠) أثناء زيارتي الأولى لأذربيجان في عام ١٤٠٦هـ _ ١٩٨٦م، استأجرها الشيخ (الله شكر باشا زاده) رئيس الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء القوقاز، لأنه يقيم في (باكو)، وذلك لنقلنا نحن وفد الرابطة آنذاك، وكان الوفد يتألف من سبعة أشخاص برئاستي، ومعنا أحد عشر مرافقاً من أهل الاتحاد السوفيتي، وكان أولئك يرافقوننا طيلة تجولنا في الاتحاد السوفيتي، أما في الرحلة التي ركبنا فيها الطائرة هذه وهي من (باكو) إلى(زاقاتالا) في أذربيجان، وهي منطقة يغلب على

سكانها المذهب السني بخلاف أهل باكو وما حولها الذين يغلب عليهم التشيع، وفيها قليل من أهل السنة.

وكان الشيخ (الله شكر باشا زاده) قد أخبرني أنه استأجر هذه الطائرة بثمانمائة ألف روبل، وأن ذلك يساوي ١٢٠٠ دولار لمسافة أقصر من هذه المسافة التي نحن ذاهبون إليها.

وهذا رخص متناه رغم ضخامة مبلغ مليون روبل في السمع.



وفد الرابطة في الطائرة من نالجيك إلى محج قلعة

ودعنا الإخوة الكرام المودعين، وركبنا الطائرة النفاثة وحدنا ونحن أربعة أشخاص، وفيها من الملاحين العاملين أربعة أشخاص



أحدهم مضيف ليس له عمل.

وأقلعت الطيارة إلى (محج قلعة) وأعلن المضيف أن الطيران سيستغرق ساعة و٥ دقائق، والحديث عما بعد هذا في زيارة داغستان في كتاب: «العودة إلى داغستان». والله المستعان.

خاتمة

بهذا ينتهي حديثنا عن هؤلاء الإخوة المسلمين الذين يعيشون في منطقة منعزلة بعزلتين:

إحداهما: عزلة الاتحاد السوفيتي السابق الذي فرض عليها ستاراً حديدياً ضمن ما فرضه من ستر حديدية على جميع البلاد التي كان الشيوعيون يسيطرون عليها.

والثانية: عزلتها في وسط جبال قبق (القوقاز) الشمالي.

ونختم حديثنا عنهم بذكر شيئين:

أولهما: بيان بالمساعدات المالية الفورية العاجلة التي كنا نحملها معنا، وسلمناها لهم، وهم مبالغ تعتبر عندنا ضئيلة بل تافهة، ولكنها عندهم ذات بال بل مهمة جداً، وذلك لتدني دخولهم الاقتصادية في هذه المرحلة الاقتصادية من تاريخ بلادهم حيث تركوا الاقتصاد الشيوعي الموجه من الدولة إلى اقتصاد السوق الحر، وذلك يقتضي وقتاً تستعيد فيه البلاد عافيتها الاقتصادية حيث تتكون عندها الرساميل الخاصة، ويتعود الناس على الاقتصاد الحر، إضافة إلى تدني قيمة عملتهم الروبل بحيث أصبح الدولار وأمثاله من العملة الصعبة ذا قيمة كبيرة لهم، ولو كان قليلاً.

على أن هذه المبالغ الرمزية التي قدمناها لبعض المساجد والمشروعات الإسلامية ليست إلا المساعدة العاجلة، وإلا فإننا قيدنا كل ذلك لدينا للعودة إلى دفع مساعدة سخية لها في المستقبل بإذن الله.



وقد فعلنا ذلك فراراً مما وقع فيه بعض الإخوة الذين يرون المشروعات الإسلامية فيقولون لأهلها: إننا سوف نساعدكم، ثم يكتبون تقارير لا يكون لها أثر أصلاً، أو لا يكون لها أثر إلا بعد مدة طويلة يصيب اليأس خلالها أهل تلك المشروعات.

الشيء الثاني: مقترحات عاجلة مبسطة للمساعدة الإسلامية العاجلة لهؤلاء الإخوة الكرام، وهي توصيات ومقترحات قابلة للتنفيذ من دون كبير جهد، بل من دون صعوبات غير طبيعية.

بيان بالمساعدات المالية الرمزية العاجلة التي قدمها وفد الرابطة برئاستي إلى المساجد والمؤسسات الإسلامية في بلاد القرتشاي شركس والقبرداي بلغار:

١- مسجد قزيل في بلدة تيريزا	٥٠٠٠ دولار
٢ - مسجد أيكون خلق	٦٠٠٠ دولار
٣ - مسجد إديفا مبل	٤٠٠٠ دولار
٤ - مسجد برومانسكي	٤٠٠٠ دولار
٥ - مسجد ينكى جوكوتا	٢٠٠٠ دولار
٦ - مسجد يسيج	٢٥٠٠ دولار
٧ - مسجد قوش حبل	٢٥٠٠ دولار
٨ - جامع شركسك	٥٠٠٠ دولار
٩ - مسجد بلدة أوز جوكوتا	٥٠٠٠ دولار
١٠ - مسجد دور جبا	٣٠٠٠ دولار
١١- مسجد القدوس في بلدة أوج كوكن	٢٠٠٠ دولار
١٢- مسجد كرسنا فوستوك	١٥٠٠ دولار
١٣- المعهد الإسلامي في شركسك	٤٣٠٠ دولار
١٤- الإدارة الدينية لمسلمي قرتشاي شركس	٢٠٠٠ دولار

١- جامع نالجيك الرئيسي	٤٠٠٠ دولار
٢- نفقات الإدارة الدينية وتسيير أمورها	٣٠٠٠ دولار
٣- مسجد الحسنية في نالجيك	٣٠٠٠ دولار
٤- مسجد ترناوس	٤٠٠٠ دولار
٥- مسجد بلم	٣٠٠٠ دولار
٦- مسجد كوندولهن	٤٠٠٠ دولار
٧- مسجد باخسان	٢٠٠٠ دولار
٨- يخشى قوى	١٥٠٠ دولار
٩- مدرسة دم آدم في باخسان	٢٠٠٠ دولار
١٠- مسجد قرية جيغم الثانية	٢٠٠٠ دولار
١١- طبع كتب تعليم الصلاة باللغة الشركسية	١٠٠٠ دولار
١٢- الإدارة الدينية لمسلمي قبرداي بلغار	٢٠٠٠ دولار

التوصيات:

جمهورية قرتشاي شركس:

١-الكتابة إلى البنك الإسلامي للتنمية بطلب المساهمة في إنشاء المعهد الإسلامي في شركسك، وتخصيص مساعدة سنوية من الرابطة لتشغيله.

٢-العمل على بناء جامع شركسك الرئيسي، وأن يكون ذلك بشكل ظاهر يبرز وجود المسلمين في البلاد عن طريق رفع منارة المسجد أو منارتيه.

٣-تعيين خمسة دعاة مؤهلين جامعياً للعمل مدرسين في المعهد الإسلامي، ودعاة ومرشدين في جمهورية قرتشاي شركس على أن

يكونوا ممن يجيدون اللغة التركية واللغة الشركسية، ويفضل من يكونون كذلك من ذوي الأصول الشركسية من الأردن أو سوريا.

٤-متابعة الاتصال مع الإدارة الدينية في قرتشاي شركس موضوع إتمام بناء المساجد التي أسهمت الرابطة في نفقاتها من خلال وفدها الزائر.

٥-تزويد الإدارة الدينية لمسلمي قرتشاي شركس بآلة كاتبة عربية وجهاز حاسب آلي وآلة تصوير هدية من الرابطة بواسطة السفارة السعودية في موسكو.

٦-تخصيص عدد من المنح الدراسية لا تقل عن عشر منح في السنة، ولمدة عشر سنوات لطلاب من أبناء الجمهورية للدراسة في جامعات المملكة بغية إيجاد أساس للتعليم الإسلامي في البلاد.

٧-توزيع الكتب الإسلامية وترجمات معاني القرآن الكريم باللغة الروسية واللغتين المحليتين.

٨-دعوة بعض أئمة المساجد والعاملين في الحقل الديني في هذه البلاد للزيارة وأداء مناسك العمرة ورؤية معالم بلادنا.

٩-دعوة عدد مختار من النشطين في العمل الإسلامي للحج ضيوفاً على الرابطة.

جمهورية قبرداي بلغار:

١- الكتابة إلى البنك الإسلامي للتنمية بطلب الإسهام في إنشاء المعهد الإسلامي المزمع إنشاؤه مع المركز الإسلامي في نالجيك.

٢- تخصيص مبلغ مائة ألف دولار للإسهام في بناء المركز الإسلامي في

نالجيك.

٣- إرسال وتعيين مدرسين على أن يكون بعضهم من الشراكسة، وبعضهم من الأتراك للتدريس في المعهد الإسلامي في نالجيك، وفي معهد باخسان الإسلامي.

٤- متابعة إتمام بناء المساجد التي أسهمت الرابطة في نفقاتها مع الإدارة الدينية ومساعدة ما يحتاج منها إلى الدعم.

٥- تعيين عدد من أئمة المساجد براتب شهري مناسب للإمامة في المساجد الجديدة أو التي ليس لها أئمة من المساجد القائمة.

٦- تزويد الإدارة الدينية لمسلمي قبرداي بلغار بآلة كاتبة عربية وجهاز للحاسب الآلي وآلة تصوير هدية من الرابطة بواسطة السفارة السعودية في موسكو.

المحتويات

